كيمياء الصلاة ٥

سدرة المنتهى

حجر النهضة: منصة الانطلاق

د.أحمد خيري العمري

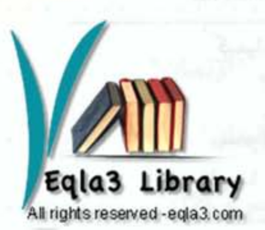


الدكتور
أحمد خيري العمري

(٥)

سِدرةُ المُنتهىٰ

حجر النهضة: منصة الانطلاق



دار الفكر
آفاق معرفة متجددة

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة كيمياء الصلاة

(٥)

سِدرةُ المُنتهىٰ

حجر النهضة، منصة الانطلاق

سدرة المنتهى: حجر النهضة- منصّة الانطلاق / أحمد خيري العمري .- دمشـــق: دار الفكر، ٢٠٠٨ .- ١٥٦ص ؛ ٢٠ سم.- (سلسلة كيمياء الصلاة؛ ٥)

١- ٢١٦,٢١ ع م ر م ٢- العنوان ٣- العمري

مكتبة الأسد



2011=1432

دار الفكر - دمشق - برامكة

٣٠٠١ ٩٧ ٩٤٧ ٠٠٩٦٣

٣٠٠١ ١١ ٠٠٩٦٣

http://www.fikr.com/
e-mail:fikr@fikr.net

كيمياء الصلاة

٥

سدرةُ المنتهى

حجر النهضة : منصة الانطلاق

د. أحمد خيري العمري

الرقم الاصطلاحي: ٢١١٨,٠٣٦

الرقم الدولي: ISBN:978-9953-511-70-2

التصنيف الموضوعي: ٢١٨ (الموضوعات الإسلامية المتنوعة)

١٥٦ ص، ١٢ × ٢٠ سم

الطبعة الرابعة: ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م

ط١ / ٢٠٠٨م

المحتوى

استراحة "المجاهد"..؟

بين كل الهيئات، فإن جلستنا الأخيرة، عند التشهد، وعند الصلاة الإبراهيمية، ستشبه جداً استراحة المحارب..

المحارب الذي يحق له أن يستريح قليلاً، ليلتقط أنفاسه، ليجدد قواه، من أجل أن يواصل لاحقاً..

والمحارب، واستراحته، ليس بالضرورة هو "المحارب" في صورته التقليدية في أذهاننا.. الذي يضع السيف أو الرشاش جانباً، (وإن كان ذلك متضمناً فيها، عندما يكون مع السيف - والرشاش - قضية حق ومبدأ حق).

المحارب، الذي يحتاج إلى استراحة، أوسع بكثير من المحارب التقليدي، إنه كل من يحارب، ولو بالكلمة، أو بالنية، ولو بعمل قد يبدو صغيراً، لكنه سيتراكم مع غيره من أعمال، صغيرة أيضاً، وينتظم داخل إطار أكبر وأوسع، ليسهم في تلك الحرب ذات المفهوم الأوسع بكثير من "الحرب"!..



استراحة المحارب..؟

لا.. فلنقل إنها استراحة "المجاهد"؛ فالمعنى الأوسع، الذي نقصده، لا يمكن أن تحتويه كلمة غير "الجهاد"، مع أنها تعرضت لمحاولات اختزال وتقزيم، وأحياناً تشويه، متعمد أحياناً، وغير متعمد في أحيان أخرى.. لكن الجهاد، هو ذلك المعنى الواسع - وسع الأفق - لكل جهد يبذل في سبيل الله، في سبيل أن تكون ما أراده الله لك أن تكون.. في سبيل الوصول للتوصيف الوظيفي الذي "عينت" - إنساناً - على أساسه..

الجهد قد يبذل في فكرة مبدعة. قد يبذل في عرق البناء.. في التخطيط.. في التنظير.. في حسن الخلق.. في تربية أبنائك.. في تربية أبناء الآخرين أيضاً..

كل عمل يصب زخمه بنية تحقيق إرادة الله، هو جهاد حتماً، صغر أو كبر، ما دام قد وجد مجرى ليصب فيه جهده ونتيجته.. والمجاهدون، والمجاهدات، يحق لهم أن يستريحوا أحياناً..

يحق لهم..؟؟

لا، إنه ليس مجرد "حق" يمكن لهم أن يطالبوا به ويمكن أن يتنازلوا عنه..

إنه أكبر من ذلك..

قد تكون تلك الجلسة ليست فقط استراحة "المجاهد"..

إنها جلسته الحتمية - الواجبة - التي يقوم فيها جهده

وجهاده، مرة يقوم بها وهو بعد في منتصف الطريق.. في الركعة الثانية، ومرّة يقوم بها وقد أشرف على الانتهاء، وتكون جلسته تلك بمنزلة نقطة النهاية، - كما لو أن الحصاد الحقيقي، لا يتم إلا بتقويم حسابات الحقل والبيدر..

في تلك الجلسة، حيث يستريح المجاهد، تلتحم النهاية بالبداية، والحقل بالبيدر، والمعايير بالنتائج..

في تلك الجلسة نقف، لنرى إن كان للقيام معنى القيام، وإن كان الركوع خضوعاً بالعقل، والسجود خضوعاً متمماً لخضوع العقل خضوعاً كلياً يتحد فيه الإنسان مع الطبيعة، مع الخلق كله.. في ذلك السجود الكلي الشامل لله عز وجل..

إنها استراحة المجاهد، مثل ربوة يصل إليها بعد طول جهد.. يشرف منها على ما قطعه من رحلته، ولكن يشرف منها أيضاً على هدف رحلته، على ما لم يقطعه بعد من الطريق..

يقوم النتائج التي حصل عليها حتى الآن، ويلقي النظر على ما يجب تحقيقه..

وبين هذا وذاك، يسترق النظر إلى بعض ما وعد به..

إنها النهاية، التي تتجدد فيها البداية، وتشرق فيها روح الانطلاق من جديد.. و تتجدد فيها الطاقة من جديد.. لمواصلة الرحلة..

الطاقة المنبعثة من المفاهيم مجدداً، المفاهيم التي تنحت عبر تلك الكلمات..

الكلمات التي تبدو كالكلمات: أحرفاً، وأصواتاً..

لكنها، أبداً ليست كالكلمات..



الفصل الأول

التحيات..حياة "أخرى"..

طالما عاملنا "التحيات" على أنها تشبه الطريقة التقليدية التي نلقي فيها "التحية" أو "السلام" على شخصٍ جئناه أو جاءنا.. والتحفظ هنا لن يشمل فقط تشبيه "الشخص"، تعالى الله عن كل شبه، ومقاربة، ولكن يشمل "التحية" و "السلام" أيضاً، فالمفهوم المتداول الآن يقزم المعاني العملاقة.. المعاني الأصل.. ويضعها داخل قوالب ضيقة.. فتكون مقيدة مثل مارد في قمقم..

لكن مع الصلاة، ومع تلك الكلمات التي تنحت مفاهيمَ جديدة لابد لنا أن نعود إلى الجذر، إلى الفهم الأساسي..

من أجل أن نكسر القمقم..

ونسمح للمارد بالانطلاق..

بالأحرى: نسمح لأنفسنا أن نكون ما يجب أن نكونه..



ولو افترضنا أن "التحيات" هي "تحية" بالمعنى التقليدي للكلمة.. فالسؤال سيكون: لماذا الآن؟.. لماذا قرب

النهاية.. لماذا ليس عند البدء؟.. لماذا ليس في السجود، والعبد يكون أقرب ما يكون لله في سجوده؟..

لماذا "التحية"، إذا كانت مجرد "تحية".. تكون في النهاية؟..

.. لابد، إذن، أنها ليست "تحية" بالمعنى التقليدي..

بل "تحية"، في معناها الأعمق، الأكثر جذرية..



التحية في أصلها مشتقة من الفعل "حيى".. وقد تعني في صيغتها هذه "الدعاء بالحياة"..

ولو تعاملنا مع التحية، على أنها دعاء بالحياة، لوجدنا ذلك ينسجم مع تحيتك لجارك أو صديقك أو أي عابر سبيل شاهدته في الشارع عَرضاً..

لكن "دعاء بالحياة"، للحي القيوم؟.. دعاء بالحياة، لخالق الحياة؟.. للحي الذي لا يموت؟..

مرة أخرى، لابد أن الأمر ليس بهذا الشكل المباشر..



لكن الدعاء بالحياة، في هذا الموضع بالذات، قرب النهاية، يذكرنا بشيء آخر، كان قد سبق حتى البداية..

شيء آخر كان في جوهره المباشر دعوة إلى الحياة..

وكان قد سبق الصلاة، بمعنى أدائها.. إنه النداء للصلاة..

إنه "حيّ على الصلاة".. "حيّ على الفلاح"..

تلك الدعوة إلى الحياة، المرتبطة بالصلاة، والمرتبطة بالفلاح، في علاقة تتساوى فيها "الصلاة" مع "الفلاح"، مع الإثمار، مع الفوز..

ليست مجرد حياة بيولوجية إذن.. تلك التي دُعِيَ لها مع الأذان..

ولكنها حياة بمعنى أعمق، حياة يرتبط معناها بالفاعلية فيها.. بالإيجابية في محتواها، بكل ما هو بناء من القيم..

كان ذلك قبل الشروع..



كي لا ننسى الهدف..

والآن تأتي "التحيات"، قبل الوصول إلى النهاية، كما لو أنها تذكرنا بالبدايات، بنقطة الانطلاق، بمحفزاته.. كما لو أنها تضع نصب أعيننا "هدفاً" أساسياً كي لا نحيد عنه.. كي نحتفظ بالمعنى ونحن نقوم بالأداء.. فيقوم "المعنى" بعملية تقويم ذاتي، وترميم دائم..

دعوة الحياة الأولى، في "حيّ على الصلاة".. لم تحدد مباشرة اتجاه هذه الحياة..

أما هنا، قبل النهاية، فالأمر يرتبط بالبداية ويصير أكثر وضوحاً..

ويشرق معنى هذه الدعوة إلى الحياة، بجعلها مرتبطة بالله..

"التحيات" لله..

التحية، على وزن الترضية، والتسمية، تشتق من "حيّ" هذا الفعل الذي يوحي بالإصرار على فعل الحياة ..إنها "حياة" مع سبق الإصرار والترصد، لكنها ليست أي حياة.. ليست "حياة فحسب" ..بل هي الحياة لله..

إنها مرة أخرى، تكريس وتصديق لما رددناه في البداية، مع طلب الفتح، في الاستفتاح ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ [الأنعام: ٦/١٦٢] كما قالها إبراهيم أولاً، التي صارت بمنزلة منصة ننطلق منها إلى الصلاة..

وهي، مرة أخرى، استجابة لتلك الدعوة إلى الله، التي حملها لنا القرآن..

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٨/٢٤]..

.. إذا دعانا لما يحيينا..

نحن موتى في تلك الحياة البيولوجية المفرغة من الهدف الأمثل والمعنى الأقوم؛ موتى في تلك الحياة التي نمطها هو المزيد من التسوق والمزيد من "تكاثر" الأموال والسلع..

أما تلك الحياة "الأخرى".. التي يدعونا إليها الله ورسوله، فهي "حياة مختلفة" ليس بينها وبين الحياة الأخرى صلة قربى حقيقية، فقط هناك ذلك التشابه في الأسماء..

وهناك بين الحياتين، ذلك الجسر الذي يمكن أن يصل

بينهما، يمكن عبره أن ننتقل من حياة خامدة رغم بهرجها وأضواء الإعلانات المسلطة عليها، إلى حياة خلقنا من أجلها، وصُمِّمَ كل ما فينا لكي يحيا هذه الحياة.. ويكون عبرها وتكون عبره..

ما هو هذا الجسر، بين الحياتين؟..

إنه الصلاة ذاتها.. ليس الحركات فقط.. ولا المعاني فقط ..بل حزمة المعاني والمفاهيم ومنظومة القيم المرتبطة بكل كلمة وكل حركة وكل سكون فيها..

الجسر هو هذه الصلاة؛ الصلوات الخمس التي نؤديها في اليوم والليلة، لا من أجل إسقاط إثم تركها، ولكن من أجل أنها تهيئنا وتدربنا على ولوج تلك الحياة الحقيقية.. على أن نحياها ونكون جزءاً منها ونصنعها أيضاً..



سيترك لنا اختلاف المفسرين في تأويل "التحيات لله" تلك المسافة الصغيرة التي نستطيع المرور من خلالها إلى الكون الشاسع من المعاني والمفاهيم، التي تتسق مع بعضها بعضاً.. معان، يشرق فيها، ومن خلالها، معنى أن تكون الحياة لله..



ولن يكون ذلك إقصاءً لما قاله بعض المفسرين، من أن التحيات هي "السلام"..

إنما هو محض تأجيل..

..و "الصلوات الطيبات"..

تعودنا أن نعامل هذا المركب اللفظي، باعتباره "ثناء" على الصلاة التي يجب أن تؤدى لله عز وجل..

لكن - ربما - هناك معان أعمق من مجرد الثناء في هذا المركب اللفظي المزدوج..

ربما يكون هناك ما يرتبط بالتحيات التي قبلها..

وبكل المعاني في منظومة التشهد والصلاة الإبراهيمية..

❖ ❖ ❖

لا ترد لفظة الطيبات وهي تصف الصلوات، أو الصلاة، في القرآن الكريم..

وقد يكون هذا باعثاً على الدهشة للوهلة الأولى.. ولكنه قد يكون مقصوداً أيضاً، في الوهلة الثانية..

ربما يكون مقصوداً أن نفهم معنى هذا "التركيب" بأنفسنا، أن ننتبه للعلاقة بين "الطيبات"..

والصلاة..

وهو أمر سنكتشف أنه أعمق بكثير من أن تكون الصلاة "مُطيبة".. أي مضمخة بالطيب.. أي بالعطر..

تدرج المعاني إلى الأفق الأعلى

هناك طيف واسع من الاستخدام القرآني لكلمة "طيب" ومشتقاتها.. وهو طيف متناسق على سعته، وسيصب بكل تدرجاته في معنى واحدإلى أن يصل إلى الصلوات الطيبات..

هناك ضمن هذا الطيف، الطيب كإنسان، ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ٣/١٧٩]..

﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ﴾ [النور: ٢٤/٢٦].

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٨]..

وهناك الكلمة الطيبة، كتعبير لفظي عن "المفهوم" الطيب أو المعنى الطيب..

﴿وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٢/٢٤]..

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ٣٥/١٠].

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾﴾ [إبراهيم: ١٤/٢٤]

وهناك، بكم أكبر، واستخدام أوسع، الطيب باعتباره "المأكل" الحلال..

﴿وَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٥/٨٨]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢/١٧٢]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [المؤمنون: ٢٣/٥١]..

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: ١٦٨/٢]..

﴿وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [المائدة: ٨٨/٥]..

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ [الأنفال: ٦٩/٨]..

﴿فَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١١٤/١٦]..

- هذه هي الاستخدامات الثلاثة الرئيسية لمفردة "الطيب" ومشتقاتها.. الإنسان، المفهوم، (المأكل)..

فكيف نربطهم معاً؟.. لنصل إلى قلب المعنى الذي يوضح لنا "الصلوات الطيبات"؟..



المعنى يتولد أولاً في الأشياء المادية المجسمة.. وهذا يجعل من الآيات التي تحدثت عن "المأكل" هي الأساس في الفهم، والمدخل لفهم كل الآيات..

"المأكل" المقصود هو الثمر، النبات.. وكذلك المنتج الحيواني.. ما دام مأكلاً حلالاً..

ومن المؤكد أن الاصطلاح قد توسع ليشمل ما هو حيواني المصدر، لكن اللفظ في الأصل، كان يقتصر على المنتج النباتي..

من أين جاء هذا الاقتصار..؟

من القرآن نفسه..

﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٥٨/٧]..

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧/٢]..

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ﴾

[إبراهيم: ٢٤/١٤]..

فالقرآن الكريم حدد في غير موضع، صلة واضحة بين "الطيبات" و "الإنبات".. صلة لم تتكرر مع ما هو حيواني الأصل والمنشأ.. مع أن المصطلح توسع ليشمل ما هو حيواني حتماً..

ويتفق ذلك مع المعنى المعجمي لكلمة "طيب"، فهي في لسان العرب: الطيب نقيض الخبيث، ويقال: الأرض الطيبة: التي تصلح للنبات..

التي تصلح للنبات..!

نضع خطاً تحت هذا ونقف عنده..

يصلح للنبات يعني أنه خصب.. أنه مثمر.. أن عنده - على الأقل - قابلية كامنة للإثمار..

نضع خطاً كبيراً، بل عدة خطوط، تحت هذا المفهوم.. ومنه، نعود أدراجنا إلى كل آيات الطيبات، بتصانيفها المختلفة، لنفهمها من جديد..

الإنسان الطيب؟.. الذرية الطيبة؟.. لا يرتبط الأمر الآن بإنسان يسير بالقرب من الحائط، وبذرية تقدم السمع والطاعة، ولا تتقن أكثر من احترام الأب وتقبيل يده..

الآن صار الأمر مرتبطاً بإنسان مثمر، إنسان منتج، إنسان مليء بالإمكانيات الكامنة التي يمكن أن تغير العالم، عبر ثمرة مختلفة، قد تنقذ البعض من الموت جوعاً، وقد تنقذ آخرين عبر دواء كامن في هذه الثمرة..

الهدف هو أن تثمر

و "الطيب من القول"، و "الكلمة الطيبة"، كذلك تعبير عن قول مثمر، عن كلمة "مثمرة"، عن مفهوم خصب ومثمر، عن مفهوم يجسد معنى الإنبات والإثمار والخصب..

وهكذا الآن، نفهم معنى أن يكون البلد طيباً ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ [سبأ: ٣٤/ ١٥]..

وأن تكون الريح طيبة ..﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٢]..

الريح هنا ليست "اللينة التي ليست شديدة" فحسب، بل هي التي تثمر توجيهاً لشراع السفينة، ريح يمكن استثمارها للوصول إلى البر.. ريح يمكن أن تحمل "لقاح" الخير، كجزء من تفاعل الإنبات..

.. ويمكن لذلك كله أن يكون جزءاً من تفاعل متسلسل ومتداخل ..تفاعل "طيب" بهذا المعنى العميق المثمر للكلمة..

القول "الطيب" الذي يتفاعل مع الإنسان، فيصير

الإنسان "الطيب".. الذي يترك فرديته ليصير مجتمع "الطيبين للطيبات".. ومجتمع "الذرية الطيبة".. الذي سيكون، "البلدة الطيبة".. وخلال ذلك كله، ستنشأ تلك الريح..

الريح الطيبة..

قد يسمونها أحياناً.. "رياح التغيير"..



ولذلك، سيكون منطقياً جداً، أن يكون استقبال خزنة الجنة، لمن يستحق دخول الجنة، ممهوراً بهذه الجملة الموحية ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٣٩/٧٣]..

لقد "طبتم"، كنتم طيبين، كنتم مثمرين.. في حياتكم الآنفة.. كنتم جزءاً من تفاعل مثمر..

والآن تستحقون الخلود، في الجنة..

عطر في قارورة النهضة

وسيكون منطقياً أيضاً، ومتسقاً مع كل ما سبق، أن يكون هناك للذين آمنوا وعملوا الصالحات، جائزة ما، فسرت دوماً أنها شجرة في الجنة، واشتق اسمها أيضاً من الفعل ذاته الذي فعلوه واستحقوا به الدخول إلى الجنة..

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الرعد: ١٣/٢٩]..

وذلك كله، سيجعل أذهاننا تتذكر أن الطيب، بتسكين الياء، هو العطر أيضاً..

ليس في ذلك "خروج" عن المعنى الأصلي.

فللإثمار رائحته أيضاً: رائحة نضوج الثمر..

كذلك "الإثمار" على كل الأصعدة.. الفكر المثمر، الذي يؤدي إلى الإنسان المثمر.. الطيب.. له رائحة مميزة أيضاً، كرائحة الطيب..

ربما يشبه أحياناً رائحة العرق.. لكنه عرق، من أجل الإثمار، من أجل البناء..

إنه عرق النهضة..

لا يشبه أي عرق آخر..

وعطره، أكثر نفاذية، من أي عطر آخر..

الصلاة هي سماد ذلك الإثمار

أين "الصلوات الطيبات" من كل هذا؟..

في الصميم طبعاً..

فالصلاة، في وظيفتها، في بنيتها التكوينية، من النية إلى التسليم، تهدف إلى جعلنا مثمرين، إلى جعلنا أفراداً وجماعة نقوم بأداء ما هو مطلوب منا. الصلاة، دورة تدريبية نخوضها من أجل إعادة تشكيل أنفسنا لنكون أكثر فاعلية، لنكون أقرب إلى أنفسنا، على الأقل أقرب إلى أنفسنا كما أرادها خالقها أن تكون.. أقرب إلى تلك القمة التي وضعنا الله فيها، والتي يختار بعض البشر، اختياراً، أن يتركوها، ليجعلوا من الدرك الأسفل عنواناً دائماً لهم..

"الصلوات الطيبات".. هي وسيلتنا إلى ذلك الإثمار.. وسيلتنا إلى أن نتمكن من استثمار كل الخصب الكامن في داخلنا.. بها نتفاعل ومع أنفسنا، يتداخل كيمياؤها في كيميائنا، فنصير جزءاً منها، وتدخل عبر التفاعل المزدوج هذا في معادلة الحضارة.. معادلة الإنسان الفاعل..

جوهر الصلاة هو ذاك؛ وهو متجسد في كل كلمة، كل حركة منها: من النية إلى الوضوء، إلى اتخاذ القبلة، إلى تكبيرة الإحرام، إلى الاستفتاح، إلى فاتحة الحياة، إلى وضع اليدين، إلى الركوع، إلى السجود، كل ما فيها يهدف إلى ذاك، ولا انفصال بين "الهدف" وآلية تحقيقه، لا يمكن لهدف أن يتحقق بمعزل عن هذه الصلوات، بالضبط كما لا يمكن أن نتوقع لثمرٍ أن ينمو بلا أرض صالحة لإنباته..

هذه هي الصلوات "الطيبات"..

.. إنها ما يجعلنا نثمر..

هل هناك صلاة غير طيبة؟

لكن هذا المركب المزدوج "الصلوات الطيبات" سيقودنا إلى احتمالين لا أجد لهما ثالثاً..

إما أن يكون وصف الطيبات هنا زائداً، بمعنى أن كل صلاة لابد أن تكون طيبة.. أو أن هناك نوعاً آخر من الصلاة، هي ليست طيبة.. اسمحوا لي أن أزعجكم قليلاً، أو كثيراً، وأزعج نفسي أيضاً.. فأدعي أن هناك نوعاً

ممارساً على نطاق واسع من الصلاة، لا يمكن أن يسمى، أو أن يدخل ضمن مفهوم "الصلاة الطيبة".. أو المثمرة..

هناك ممارسة للصلاة، لا تجعلها مثمرة، لا تسهم في جعل المصلي الذي يؤديها شخصاً أكثر فاعلية أو إثماراً..

وهذه لا يمكن أن يطلق عليها، صلاة طيبة..

❖ ❖ ❖

واسمحوا لي أن أزعجكم، ونفسي، أكثر.. فأقول: إن هناك أداءً للصلاة لا يكتفي بعدم الإثمار.. بل يتجاوز ذلك إلى نقيضه الذي لا أريد أن أسميه..

كيف؟..

يحدث ذلك عندما تؤدىٰ الصلاة لمجرد إسقاط الفريضة، تؤدى فقط تكفيراً لما بينها من ذنوب، فتكون سبباً لتراكم الذنوب.. تؤدى لتكون تبريراً للإبقاء على الوضع على ما هو عليه.. بحجة أن فعل "الصلاة" بحد ذاته، أفضل من "لا شيء"..

عندما يكون: "إنني على الأقل، أفضل من غيري، لأنني أصلي"..

عندها ستكف الصلاة عن أداء دورها التدريبي - التحفيزي على إنشاء إنسان أفضل يبني عالماً أفضل..

بل ستكون، على العكس: تقوم بمهمة إبقاء الوضع على ما هو عليه، وهذا لن يكون "طيباً"..

بل العكس!..

وبين حياة لله (مع سبق الإصرار والترصد) وصلوات طيبات هي لله أيضاً، علاقة وطيدة، ذلك أن حياة كهذه يجب أن تكون حتماً، وبالتعريف: "حياة طيبة".. بالمعنى الأصيل للكلمة، وليس بالمعنى الذي تركب في أذهاننا عن حياة مترفة مترعة بالسلع والملذات.. كما تروجها ثقافة الإعلانات التجارية وتزرعها في عقولنا..

"حياة طيبة" هي الحياة التي تملك المعنى والهدف، وتعمل على جعل الحياة أفضل، والأرض وعاءً أفضل لحياة طيبة تحياها الأجيال القادمة..

حياة طيبة، الطريق إليها لابد أن يمر بمنظومة الإيمان والعمل الصالح المنسجم مع ثوابت هذا الإيمان وقيمه..

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ١٦/٩٧]..

الجزاء أخروي بالتأكيد..

أما الحياة الطيبة، - لنتذكر: طبتم - فهي قد تكون هنا، في الأرض.. حياة طيبة: ليست ببطاقة الائتمان الحديثة.. ولا بالسيارة من الطراز الأحدث (وإن كان ذلك لا يتعارض بالضرورة)..

لكن بجعل هذا العالم أفضل.. أقل تناقضاً.. أكثر عدالة..

❖ ❖ ❖

النور بعد المنعطف

بعد الصلوات الطيبات بالضبط، سيكون هناك منعطف.. منعطف مهم وحاد، وإن كان جزءاً أساسياً من الطريق، وإن فتحت عينيك جيداً، فإن النور بعد المنعطف سيبهرك ويغمرك حتى نخاعك..

أما إن كان الصدأ والكلس قد غطى على بصرك وبصيرتك وقلبك وعقلك، فإن النور سيمر أمامك كما لو كان ضوءاً صادراً من أنبوبة نيون باهتة..

بعد المنعطف، بعد التحيات والصلوات، ستكون هناك، وسيكون هو أيضاً هناك..

سينبعث النور، والدفء، من حضوره الكريم..

بعد المنعطف، وفجأة، سيشهق القلب بجذل فرحاً بلقائه هناك.. لا يسأل أحد من هو..

إنه الذي "نسلّم" عليه بعد الصلوات الطيبات..

إنه النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام..



وهو منعطف لأنها ستكون المرة الأولى في الصلاة، التي سيأتي فيها ذكره الكريم بشكل مباشر..

كان هناك في النداء للصلاة، الأذان، الشهادة طبعاً..

لكن ضمن الصلاة نفسها، ومن لحظة تكبيرة الإحرام والدخول فيها ركناً تلو آخر.. لم يكن هناك ذكره

الشريف، بشكل مباشر.. كأن هناك - بالتأكيد - حقيقة أن كل حركة وسكنة وحرف نقوم به، إنما نقوم به اقتداءً به عليه الصلاة والسلام، إطاعةً لقوله ﷺ "صلوا كما رأيتموني أصلي".. لكن التشرف بذكره الكريم لم يحصل، إلى لحظة هذه المنعطف، في جلسة استراحة المجاهد..

لماذا الآن.. لماذا ليس قبلها؟..



لماذا ليس قبلها؟..

لأن كل ما فات من الأركان كان موجهاً إلى الله عز وجل، القيام كان امتثالاً لأمره بأن نقوم له، والركوع كان إعلاناً بخضوع العقل الإنساني لعظمته وإعلانه الاستسلام والكف عن محاولة تجاوز الحدود نحو الكنه الإلهي الذي لا يمكن اقتحامه.. وتوجيه العقل إلى ما يجب توجيهه له، والسجود كان خضوعاً شاملاً، بكل ما هو نحن، باتحاد مع الطبيعة والخليقة، للواحد الأحد الذي ينفرد بالاستحقاق للسجود..

كل هذه الأركان موجهة له عز وجل، وأي ذكر "مبكر" للرسول الكريم كان سيورث خللاً في إطار العلاقة الأساسية بين العبد وربه.. وهو الأمر الذي تمادت فيه بقية الأديان طولاً وعرضاً، ولكن لأنه الدين الخاتم الذي وضع نقطة النهاية على كل الرسالات السماوية، فإن خلطاً كهذا لن يكون له مكان في الصلاة، التي هي عماد الدين.. حدثت أخطاء أخرى في أماكن أخرى، حدث خلط

في مفاهيم أخرى، وانزلق بعض المسلمين إلى غلو في الرسول الكريم كان قد نهى عنه عليه الصلاة والسلام، لأنه أدرك - بمفاتيح الحكمة التي أوتيها - أن منزلق الغلو هو مقتل كامن لفعالية الشخصية التي يحدث فيها هذا الغلو؛ أي تحويلها من "قدوة" تعلم الآخرين وترشدهم وتتفاعل معهم بسيرتها وحكمتها، إلى "أيقونة" مقدسة مؤطرة بإطار يمنع أي تفاعل حقيقي بين القدوة والمقتدي، والعلاقة الوحيدة الممكنة في حالة الغلو هذه هي التقديس والثناء دون إمكانية الاقتداء الفعال..

حدث هذا فعلاً للأسف في بعض عقائد بعض المسلمين، تسرَّب إليها؛ ربما بسبب الجمود وربما بسبب التقليد وربما بسبب العجز عن الفهم الأعمق والأقصى لعقيدة التوحيد.. لكنه حدث..

لكن ليس في الصلاة..

ظلت الصلاة بمنأى عن ذلك الغلو..

ظلت تعبر عن ذلك الحد الفاصل الذي لا يمكن تجاوزه إلا بالخروج من الدين ربما..

ظلت أركان الصلاة الأساسية الثلاثة (القيام، الركوع، والسجود) موجهة لله عز وجل.

وسيأتي النور المنبعث من ذكره الشريف، في اللحظة التي يجب أن يأتي هذا النور..

ليس قبل..

وبالتأكيد ليس بعد..

الوضعية الأمثل للقائه..

فلماذا الآن..؟

لأن هذه الوضعية، بفيزيائيتها ومعانيها، تعبر خير تعبير عن العلاقة بيننا وبينه عليه الصلاة والسلام.. كما كانت الأوضاع السابقة، تعبر عن علاقتنا به عز وجل..

تلك الجلسة، التي تشبه استراحة المجاهد، تعبر بالضبط عما يجب أن يكون بيننا وبينه: إنها جلسة التلقي، جلسة التعلم، هكذا كان يجلس الطلاب في جلسات العلم، وهكذا كان يتحلق التلامذة حول أستاذهم، وهكذا نجلس نحن، لنتلقى الحكمة من معلمها الأول..

ليس من انحناءة في هذه الجلسة، ليس من شيء فيها يقارب ذلك، أو يقترب من الركوع أو أي مظهر آخر من مظاهر التعبد والتقديس.. هنا الجلسة جلسة تعلم واحترام.. هنا الجلسة نتعلم فيها منه، ونستشعر أنه جالس معنا، أمامنا، ونحن نتحلق حوله، صفاً تلو صف تلو صف..

وفي جلستنا تلك على الأرض من الحميمية والقرب منه، ما لا يمكن أن يوجد في وضعية أخرى.. إنه الجلوس المشترك على أرض واحدة، نحن وهو، والأرض الواحدة تضمنا معاً، وتكون أكثر من مجرد أرض.. تكون أرضية مشتركة، تكون قاسماً مشتركاً نستخدمه كإرثنا الأغلى، تلك الأرض التي نجلس عليها معاً، تضم الثروة الأغلى من كل مورد خام يمكن أن يوجد في باطن الأرض..

ثروة: أن تكون لديك فرصة للتعلم منه..

وها نحن أولاء نجلس تلك الجلسة، كرمز دائم لإمكانية حدوث ذلك دوماً.. بل لما يجب أن يحدث دوماً..

أن نجلس هناك، في استراحة المجاهد، لنأخذ منه منبع الحكمة وخطوطها، لنتعلم منه ما يجب أن نفعله عندما نكون في ذلك الزلزال، أو تلك العاصفة، لن يقول لنا مباشرة أبداً؛ لأن ذلك قد يفسد الغرض من الجلسة بأكملها.. قد يفسد فحوى التعلم بتحويله إلى تلقين..

لذلك سيكون التعلم دوماً بشكل غير مباشر عبر أخذ المثل من رحلته هو، عليه الصلاة والسلام.

انتهى زمن الأجوبة المباشرة، واستراحة كتلك، ستتجاوز المباشرة والتلقين إلى جوهر التعلم الحقيقي..

وضعية الجلوس تلك هي التي تؤطر ذلك كله؛ تضع النقاط الأساسية في علاقتنا به عليه الصلاة والسلام. بالأحرى: لما يجب أن تكون عليه علاقتنا به..

المعاني مجسدة في إنسان حقيقي

ولماذا الآن..؟

لأن التحيات والصلوات الطيبات قد سبقت ذلك بالضبط، فصار لابد أن تحدد وتربط بوجود إنساني، بشخص جسد ذلك كله.. أي حديث عن الحياة الحقيقية، والصلاة المثمرة، يمكن أن يكون مجرد حديث إنشائي لا أساس له من الصحة، ما لم يثبت بالبرهان القاطع أن إنساناً ما ، من كوكب الأرض! قد تمكن من فعلها.. قد

تمكن من إنجاز تلك الحياة التي هي لله؛ وجعل من صلاته وسيلة عبور ناجزة إلى الضفة الأخرى: ليس عبوراً فردياً؛ بل نقل معه مجتمعه وأمته بأسرها..

كل الحديث عن الحياة الطيبة، يكون محض نظرية، مجرد احتمال، مجرد شيء قد يكون وقد لا يكون، ما لم يكن هناك إنسان قد اخترق ونجح في ذلك..

ولأنه وحده قد نجح النجاح الأقصى، من بين كل الأنبياء والرسل، فإن ذكره الشريف، عليه الصلاة والسلام، سيأتي هنا تحديداً لأول مرة..

"السلام عليك"..



كل الاحترام الواجب لكل الأنبياء والرسل أولئك الذين نعرف والذين لا نعرف..

لكن "خاتم النبيين" - لم يكن خاتماً لهم اعتباطاً.. حاشاه، وتنزهت حكمة الله عز وجل عن ذلك..

لكنه صار خاتمهم، وإمامهم، لأنه - وحده - تمكن من ذلك.. من اختراق حاجز الواقع، وإنزال النظرية من الرؤوس، والقلوب.. إلى أرض الواقع..

وحده، عليه الصلاة والسلام، من بين كل الأنبياء، عليهم السلام جميعاً، تمكن ليس من اختزال التجربة النبوية بأسرها فحسب؛ بل من إيصالها إلى هدفها.. إلى تمامها، إلى ذروة نضوجها.. واكتمالها ..متميزاً عن جميع الأنبياء..

من القاع إلى القمة

كل الرسل والأنبياء يمكن تلخيص منجزاتهم وإسهاماتهم بواحدة من اثنتين:

إما أنهم انطلقوا مع أقوامهم من نقطة الصفر، من حيث الكفر، والرفض والصدود، وتمكنوا من كسب بعض المؤمنين، وإخراجهم من مجتمع الصفر والوعيد والانهيار، لكنهم لم يتمكنوا من إنشاء مجتمع آخر بديل.. لم يتمكنوا من تحقيق الهدف الأسمى: هدف البناء.. أو أنهم من جهة أخرى، تمكنوا فعلاً من الوصول إلى هذا الهدف، وحققوا العدالة والحق في مجتمعاتهم، لكن ذلك لم يكن إلا إنجازاً تراكمت خطواته بعضها فوق بعض؛ أي إن المجتمع أصلاً لم يكن في نقطة الصفر، كان مجتمع إيمان في الأصل، ربما احتاج إلى إصلاح، إلى ترميم، إلى تقويم..

إلى الفئة الأولى يمكن أن نضم أنبياء مثل نوح، لوط، هود، صالح، وأسماء أخرى كثيرة ومهمة؛ لكنها لم تصل إلى الهدف، انطلاقاً من نقطة الصفر..

الفئة الثانية أصغر وأقل عدداً، تضم أولئك الذين تمكنوا من قيادة وتزعم مجتمعاتهم مثل: سليمان وداوود، ويوسف..

وحده عليه الصلاة والسلام، جمع بين الأمرين، بين الانطلاق من مجتمع كان في نقطة الصفر، كان في القاع،

كان في عداد العدم، وينشئ مجتمعاً جديداً بديلاً عن مجتمع الصفر ولا يتركه بذرةً، لا يدعه مجرد جنين.. بل يصل به إلى ذروة اكتماله ونضجه؛ مجتمع حقيقي قوي ومتماسك وفاعل ..مجتمع يجسّد الحضارة الحقيقية بدلاً من التغني بها..

وحده، النبي الخاتم، استطاع ذلك.. في رحلة حياته التي لم تتجاوز معدل عمر الإنسان العادي، من الصفر إلى القمة..



نوح، مع قدره ومكانته ودأبه وإصراره، استطاع أن يبني السفينة، لكن ليس المجتمع البديل، كانت سفينته قارب نجاة وصولاً إلى بر الأمان، لكن إنشاء المجتمع الآخر، وتمكينه من تحقيق أهدافه، هو ما لم يدخل ضمن ما حققه نوح..

موسى أيضاً، على الرغم من حجم قصته في القرآن، ومع مواجهته لأعتى طغاة عصره، وتمكنه من إنقاذ قومه من ظلمه واستعباده لهم، إلا أن مجتمع الميعاد لم يتحقق، الخروج تحقق، لكن ليس الدخول إلى أرض الميعاد - مجتمع الميعاد.. مات عليه السلام قبل أن يصل إلى هناك..

السيد المسيح أيضاً، عيسى ابن مريم عليه السلام، ومن باب أولى، كانت مهمته إصلاحية داخلية في طبيعتها، واصطدم فوراً بعقلية الكهنة والفريسيين التي رفضت أن

ترى الروح في غمرة انشغالها بالتفاصيل.. وكان أن أحبطت مهمته مكائدهم وحيلهم.. ورفع عليه السلام دون أن يرى ما جاء لينجزه..

حتى سيدنا إبراهيم، عليه الصلاة والسلام، الذي جعله عز وجل "إماماً للناس".. حتى إبراهيم.. وضع حجر الأساس للحضارة الأخرى وللمجتمع البديل..

لكنه لم يرَ البناء قد علا.. ولم يرَ البذرة وقد صارت نباتاً مثمراً..

وحده محمد، عليه الصلاة والسلام، أنجز في حياة واحدة ما يستغرق آخرون عدة أعمار للتخطيط له،فضلاً عن إنجازه..

وحده محمد، جعل من تلك المهمة تصير "غير مستحيلة"، وعمل على "ملكوت الواقع"، وليس على الملكوت الافتراضي، فصار "العالم الجديد ليس ممكناً" فحسب بل حقيقة واقعة، وصار للمعاني بناؤها الفيزيائي الذي يجسده الإنسان وليس يمر فكرة في باله..



والحديث سيكون من باب أولى عن القادة والزعماء، على ما في المقارنة من تجاوز.. فكل من يوصفون بأنهم غيروا التاريخ، لم يتمكنوا أبداً من إحداث ما أحدثه عليه الصلاة والسلام..

هناك منهم من استطاع فعلاً إيصال مجتمعه إلى مراحل متقدمة، لكن ذلك لم يكن قد بدأ من نقطة

الصفر الحضارية التي بدأ منها عليه الصلاة والسلام، وإنما تراكم وإكمال لمسيرة بدأها آخرون..

وحده عليه الصلاة والسلام، انطلق بمجتمعه من القاع وأعاد تكوينه وتركيبه ليصل به إلى القمة..

وربما كان هذا من الأسباب التي جعلته "خاتم النبيين"..

وربما كان هذا كله ما يجعلك لا تكف عن محاولة إخراج مجتمعك من القاع.. مهما بدا ذلك عبثياً للوهلة الأولى والثانية والعاشرة بعد الألف..



وللتوضيح..

فمع أن المسيرة الإبراهيمية لم تكتمل إلا مع وريثها الشرعي الوحيد عليه الصلاة والسلام؛ إلا أن محمداً قد بدأ من الصفر، لأن أي أثر حقيقي، أي تراكم عملي لإبراهيم وإرثه لم يكن قد بقي في المجتمع الجاهلي.. فليس من الممكن اعتبار أنه انطلق من النقطة التي توقف عندها إبراهيم، كما حدث مع إسماعيل وإسحاق ويعقوب مثلاً.. ذلك أن الجاهلية كانت قد محت كل نقطة يمكن مواصلتها..

من القاع.. من الصفر.. إلى القمة..

الثلاثية المتلازمة: السلام- الرحمة- البركات

وعندما يغمرنا ذكره الكريم، بعد ذلك المنعطف، فإن ذلك لا يكون إلا عبر ثلاثية متلازمة، نسيء دوماً فهمها،

ونختار سطحها الأقرب لكي تقف أفهامنا عليه، وننسى أن هناك أعماقاً أخرى قد تحتوي على مناجم وكنوز.. كل ما في الأمر أننا نستصعب الحفر والتنقيب ونستهولهما..

هذه الثلاثية هي السلام ورحمة الله وبركاته.. التي شكلت طريقة التسليم والتحية التقليدية السائدة والمتعارف عليها عندنا.. إنها مرتكزة، أولاً: على السلام، كرأس المثلث وأعلى جزء فيه، ومن ثم على رحمة الله، وبركاته..

فلنتنبه هنا إلى ما قاله عليه الصلاة والسلام عن الأمر، عندما نهى عن قول "السلام على الله"؛ لأن الله هو السلام..

فالسلام هو اسم من أسماء الله تعالى، ولهذا لم ينسب إليه عز وجل كما حدث مع الرحمة، والبركات.. لأنه متماه معه، ولهذا نهى عنه عليه الصلاة والسلام عن توجيه "السلام" إلى الله، فالسلام لغة يعني "السلام من الآفات والنقائص"، أي الخلو منها، وعندما يستخدم كصيغة دعاء، فإنه دعاء من أجل الخلو من الآفات والنقائص، وهو أمر متناقض مع حقيقة أن الله - جل وعلا - خالٍ ومتعالٍ عن الآفات..

لذا فهو دعاء موجه إلى الإنسان لكي يتخلص من هذه الآفات، وعندما يوجه إليه عليه أفضل الصلاة والسلام، فهو دعاء وخبر في آن واحد..

المهم أن معنى السلام، يدور حول هذا المعنى الذي يتفاعل فيه الإنسان مع ذاته، لغرض التخلص من آفاته

ونقائصه، قد يكون بعضها آفات إنسانية تماماً، موجودة ضمن الطبيعة البشرية وتناقضاتها، لكن الاستسلام لها هو الآفة الأكبر، ولذا فإنها يمكن أن تقنن، ويتحكم بها..

المهم أن السلام له معنى لا يمكن اختزاله بالمعنى السكوني الذي "سكنت" عليه أفهامنا، والذي يختصره البعض بتصويره أنه محض "لا عنف"..

السلام هو التخلص من الآفات، عملية التخلص هذه ليست بالضرورة تأملاً ذهنياً، وجهاداً داخلياً (على أهمية ذلك على المستوى الداخلي النفسي).. لكن الوصول إلى السلام على المستوى الخارجي، مستوى المجتمع والجماعات والأفراد في علاقاتهم مع بعضهم بعضاً- قد يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك.. قد يتطلب صراعاً بين مؤسسات أو أفراد تمكنت منهم آفاتهم حتى صاروا هم آفات ينبغي استئصالها..

قد يشكل ذلك صراعاً أو صداماً أو تدافعاً..

وقد يكون هناك دم..

من أجل السلام، السلام الحقيقي الذي هو التخلص من النقائص والآفات.. قد يكون هناك بعض الدم، بعض العنف.. إنها طبيعة الأشياء..



ويشبه الأمر، تحضير أرضك للزراعة، لموسم قادم، بتنقيتها من الأعشاب الضارة التي ستعوق نمو النبات الذي تريده..

سيكون هناك قطع واستئصال من الجذر.. سيكون أمراً مؤلماً من وجهة نظر الأعشاب الضارة على الأقل..

لكنه لابد..



هذا هو السلام إذن.. عملية تتفاعل فيها النفس للتخلص من نقائصها، والمجتمع من آفاته..

ليس هناك في لسان العرب أي معنى يشير إلى المعنى "اللا عنفي" الذي يروج له حالياً؛ لكن الوصول إلى هذا المعنى يتطلب، ضمناً، القيام بالتخلص من كل ما سبق.. وكل الإشارات القرآنية إلى السلام، وإلى دار السلام، تندرج ضمن هذا المعنى الواسع الشامل، ربما لفظ "السلم" يقترب من المعنى اللا عنفي، لكن هذا اللفظ (الوارد ٦ مرات) جاء في سياق واضح عن الحرب واللا حرب، أما السلام الذي تجاوز استخدامه القرآني الأربعين مرة، فقد جاء في المعنى الإنساني الواسع، الذي يجعل من السلام عملية متعددة الأبعاد والآفاق، تهدف إلى التخلص من كل ما يعوق هدف هذا الإنسان..



و "رحمة الله" هنا، هي ثاني عنصر في المتلازمة الثلاثية، وهي أبعد ما تكون عن العطف المجرد، فالرحمة الإلهية التي كتبها الله على نفسه، وما كتب على نفسه سواها، هي بمنزلة الحاضنة الواسعة التي تضم البشر جميعاً، وتوفر لهم البيئة والمناخ اللازمين لإنمائهم

ونضوجهم.. طبعاً هناك بعض البشر ممن يرفض تلك الحاضنة، ويرفض الاعتراف بوجودها، لكن ذلك لن يغير من حقيقة وجود الحاضنة. والرحمة الإلهية، التي حاولنا المرور عليها في "الرحمن الرحيم" تغمر كوننا كله بالتوازن والتناسق والانسجام. لماذا لا يستطيع البعض أن يروها؟.. فضلاً عن أن تكون حاضنتهم التي ينمون فيها؟.. لأن "السلام" يأتي قبل الرحمة، وإذا لم تدخل السلام فإنك لن تتمكن من دخول الرحمة أو إدراكها. السلام يستأصل تلك الآفات التي تعزلك عن الوصول إلى الرحمة والدخول فيها..

لذلك كان السلام أولاً؛ كعملية تنقية للبذرة من الشوائب، قبل وضعها في "الرحم"..

حيث ستحمى، وترعى هناك..



وبعد أن توفر الرحمة الإلهية "الرحم" المناسب لحماية تلك البذرة التي نقيت عبر السلام، فإن الخطوة الثالثة، الحتمية والمحتمة، والتي هي المكملة والمتممة لسابقتيها: النماء والزيادة.. وهل هناك لفظ آخر يقتنص هذا المعنى - أكثر من بركات الله؟.. فبركات الله لا تشير إلى أي زيادة أو أي نماء؛ بل إلى زيادة مقتصرة على الخير وإنماء له، وهو الخير الذي نتج من الخطوتين السابقتين: السلام الذي تخلص من الآفات والنقائص، وولج رحمة الله كحاضنة له، ومن ثم.. نما، وزاد، وثبت..

إنها تلك البذرة التي نقتها عملية السلام من عيوبها، وأدخلتها في عالم التوازن والفرص، عالم الرحمة الإلهية التي تحيط بنا كما يحيط رحم الأم بالجنين ويوفر له الحماية والنمو..

ولكن نماءه الأكبر، و "زيادته" نوعاً وكماً ستكون عندما يدخل في الطور اللاحق..

إنها البركات: الضلع الثالث المتمم، التي ستعبر عن الازدهار والنمو المطرد، بل والثبات أيضاً على ذلك، فكلمة "برك" أيضاً تعني المكوث والإقامة والثبات.. وهذا كله، عندما يرتبط بالله، ليصير بركات الله، فإنه سيرتبط بقدرته على جعل هذه العملية كلها مثمرة، ومزدهرة ومستمرة..

إنها بركات الله التي ألقيت على مشروع أنقذ العالم من طوفانه، على نوح وهو يهبط من السفينة ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود: ١١/٤٨]..

إنه السلام أيضاً، ومن ثم البركات، وبينهما السفينة التي امتطت صهوة الرحمة الإلهية وتوازناتها..

والبركات هنا، عندما تنزلت على المشروع، فإنها انطلقت من الفرد، نوح، لتحل على الأمة بأسرها، الأمة التي تماهت مع المشروع البديل.. مع الرسالة البديلة..



تلك هي الثلاثية المتلازمة التي تشكل سلامنا

التقليدي، وقد فعلنا كل ما في طاقتنا لقتل كل المعاني الموجودة في كل كلمة.. وتسطيحها وتحويلها إلى مجرد معنى رديف لأي "تحية" بلغة أخرى..

السلام، والرحمة، والبركة..

إنها دورة حقيقية في الإنماء، بصيغة عبارة تقولها صباح مساء..

إنها حث على الدخول في ذلك التفاعل المثلث، الذي سيصير بهذا الشكل عملية مستمرة ومتداخلة، عندما تنتبه للمفاهيم المتضمنة فيها، للمعاني العميقة في كل كلمة، فإنك بالتدريج، سواء كان ذلك بوعي أم بلا وعي منك، ستتشكل، أو ستحاول أن تتشكل، حسب هذه الثلاثية المتلازمة..

لو كان هناك هذا الفهم لتلك الكلمات الثلاث لوجدنا أنفسنا دوماً نحاول أن نتخلص من آفاتنا.. ولجعلنا ذلك ندخل في ذلك التفاعل المتسلسل الذي ينتهي بالازدهار والإثمار..



فلنتذكر هنا، أن هذه الثلاثية المتلازمة - في السلام والرحمة والبركات - وجهت له عليه الصلاة والسلام.. وكان هذا هو المنعطف الذي غمرنا فيه بالنور المنبعث من حضوره الكريم.. ودعاء "الثلاثية المتلازمة" هذا، هو دعاء يستخدم مع الجميع، كدعاء لأن يصلوا لنتيجة هذا التفاعل، لكن هذه الثلاثية عندما توجه له عليه أفضل الصلاة والسلام تكون خبراً بصيغة الدعاء.. فهو قد

"جسد" كل ذلك التفاعل، وتمكن من أن يتخلص من آفات ونقائص البشر، ولهذا فقد وصل للمكانة التي وصلها.. ونحن هنا، في هذه الجلسة (الافتراضية) معه، ومع ذكره الشريف، لكي نتعلم منه بالذات كيف نكون جزءاً ولو بسيطاً مما كان عليه (عليه الصلاة والسلام).. من ذلك التخلص من الآفات والنقائص البشرية، الذي يسمونه السلام، والذي سيجعلنا ننمو ونزدهر ونثمر..

السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته..



السلام علينا ؟

ثم إنه السلام علينا..

وقد يصلي كل منا منفرداً - في جوف الليل أو جوف العزلة - لكن السلام سيكون بهذه الصيغة التي تكرس (كما في سورة الفاتحة) حقيقة أنك جزء من جماعة، وأن كونك فرداً يجب ألا يلغي كونك جزءاً من مجتمع.. وصيغة السلام هنا توحي بأن النجاة الفردية مستحيلة، وأن شخصاً ما، مهما كان ومهما بلغ، لا يمكن له أن يتخلص من آفاته ونقائصه إذا بقيت هذه العملية في إطار فردي ضيق، لأن المجتمع من حوله سيتكفل بإعادة الآفات والنقائص فور التعامل الحتمي معه، والصيغة هنا لا تقترح "العزلة الفردية" كحل للحفاظ على السلامة من الآفات، فالعزلة بحد ذاتها هي آفة ينبغي التخلص منها.. والصيغة

توحي بأن عملية التخلص هذه عندما تكون جماعية، أي عندما تصير هدفاً اجتماعياً منشوداً، يتعاون من أجله الجميع بأساليب وآليات عمل متنوعة، فإن النتيجة ستكون أقرب.. إما التخلص الفردي من الآفات، فهو لن يكون أكثر من "يوغا" نفسية للتأمل وإزالة ضغوط الحياة عن الفرد.. وهذا الهدف، ولو تحقق، فإنه بعيد جداً عن الهدف الأساسي من الصلاة.. ومن السلام.. ومن كل ما سبق من مفاهيم..



ولكن السلام ليس علينا فقط..

ولكنه على "عباد الله الصالحين" أيضاً..

الصيغة لا تنفي أننا منهم، ولا تثبت ذلك أيضاً.. إنها مفتوحة لتجعلك تسعى أن تكون منهم، أو لتحثك على أن تكون منهم، وقد تكون منهم فعلاً، لكن الصيغة المحايدة المفتوحة ستنأى بك عن السقوط في مدح الذات..

لكن من هم عباد الله الصالحون هؤلاء..؟

الصورة غير الصالحة، لعباد الله الصالحين

في أذهاننا صورة مكرسة للعبد الصالح، بعيدة جداً، بل ومناقضة تماماً، للمفهوم القرآني للعبد الصالح..

الصورة المكرسة في أذهاننا، تجعل من العبد الصالح رجلاً زاهداً في الدنيا، متفرغاً للعبادة بمعناها الشعائري، طيب الخلق مع جيرانه وأصحابه.. شبه درويش.. نقطة انتهى..

لكن القرآن الكريم، يستخدم اللفظ لينحت لنا مفهوماً مختلفاً جداً، واسعاً ومفتوحاً على آفاق وأطياف مختلفة..

فمفهوم عباد الله الصالحين قدم في ثلاثة سياقات مختلفة ومترابطة، مرة بصفتهم مجموعة أكبر ضمت - ضمن من ضمت - رسولين من رسل الله ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ٦٦/١٠]، والرسولان هما نوح ولوط، اللذان حاولا إنقاذ مجتمعيهما من الانهيار، ليس عبر الشعائر فحسب، بل عبر العمل المجتمعي الذي أسهم بإنقاذ ولو جزء من هذا المجتمع.. أي إنه أنقذ ما أمكن إنقاذه.. ويدلنا السياق أيضاً أن عائلة العبد الصالح لم تكن بالضرورة قد صلحت مثله، وأن الصورة التقليدية للرجل الصالح الذي يحبه الجميع و يتبعون إرشاداته (إن وجدت!) هي صورة مثالية أكثر مما يجب، فالواقع له إفرازاته وإرهاصاته التي تقدم العبد الصالح بصورة أكثر فاعلية وأقل مثالية..

السياق الثاني للعباد الصالحين، جاء مع نبي كان له التمكين في الأرض، استطاع فهم آليات التحاور بين الحيوانات، ومع ذلك، فإن (تمكنه) هذا كان مسخراً من أجل أن يدخل في (العباد الصالحين)؛ أي إن العبد الصالح هنا لم يكن ممثلاً في شخص الدرويش الذي في أذهاننا،

بل النبي المتربع على عرش الملك وعرش العلم بمقاييس زمانه..

ولكن السياق الثالث سيجعل معنى العباد الصالحين يتوضح أكثر، ويطيح تماماً بالصورة التقليدية في أذهاننا..

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥]..

العبد الصالح، في أذهاننا، يمكن أن يتنازل عن حقه الشخصي في الإرث، لأنه لا يحب المشاكل مع هذا أو ذاك، إنه "عبد صالح"، وهو منشغل تماماً بعبادته ولذلك فهو زاهد في "الأرض" وما عليها..

أما القرآن الكريم، فهو يطيح بهذه الصورة المفروسة في أذهاننا، ويقدم صورة بديلة مختلفة تماماً..

فالعباد الصالحون هنا سيكونون من الفعالية والإيجابية والقوة والتصميم والإرادة، ما يجعل الأرض كلها إرثهم الشخصي الذي لا يمكن المساومة عليه، بل الذي تتحدد مكانتهم الأخروية بناء على استحقاقهم له وحيازتهم له.. فهذا الإرث لا يتحقق عبر النسب كما بقية المواريث، بل يتحقق عبر الإيمان والعمل الصالح؛ أي منظومة مشتركة من العقيدة الإيجابية والسلوك الإيجابي الفعال..

ولهذا يجب الانتباه هنا إلى أن ليس كل من علا في الأرض وتمكن فيها قد "ورثها".. ومن ثم ليس كل من علا وتمكن في الأرض هو من العباد الصالحين.. ذلك أن في كل عصر وزمان هناك فرعون ما، وحضارته، يمارسون

علواً في الأرض، وحيازة لها.. مما قد يجعل البعض - بدوافع من عقدة النقص تجاه المنتصر وعقيدته - يعتقد، ويروج لاعتقاده، بأن كل من "يعلو" في الأرض هو من عباد الله الصالحين.. بطريقة ما، ما دام قد تمكن من السنن.. والحقيقة أن العلو غير الإرث والاستخلاف.. رغم تشابههما الظاهري..

والآية تشير إلى أن الإرث، محصور بعباد الله الصالحين، أولئك الذين ينطلقون من عبادتهم ليجعلوها محركاً لصلاح أقوامهم وأمتهم ومن ثم إصلاح الأرض والعالم بأسره..

من أين جئت بهذا؟.. الربط بين العبادة والإرث؟.. ليس من لفظ "عبادي" الصالحين فقط، بل من الآية المباشرة فوراً؛ الآية التي تلي: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٥]..

ماذا تقول الآية التي تليها؟..

﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٦]..

فالقوم "العابدون" هم المعنيون بهذا البلاغ - أن الأرض إرث حصري لهم.. لكن عليهم أن يجعلوا من عبادتهم أداة صلاح وإصلاح، للأنفس، وللمجتمع.. وللعالم..

ولن يكون مصادفة أن يأتي هذا كله، في أهم عبادة

من عباداتنا؛ في الصلاة، وأن يكون السلام علينا، وعلى عباد الله الصالحين.. فذلك كله يصب في جعل الصلاة أكثر من عبادة مجردة، بل هي عبادة تهيئك وتعدك لتساهم في إصلاح العالم وجعله مكاناً أفضل..

تجعلك ترثه..



وذلك كله ارتبط بالسلام، الذي هو عملية التخلص من النقائض.. ربما للدخول في خانة "عباد الله الصالحين" الذين لا يشبهون الدراويش من قريب أو بعيد..



الفصل الثاني

الرسول والنبي

لكن أمراً ما يجب أن نتنبه له هنا، بعد أن ألقينا السلام على النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين..

الأمر هو أن السلام الذي ألقيناه على النبي عليه الصلاة والسلام، قد صيغ بصيغة خطاب للنبي.. وليس للرسول..

هل هناك من فرق؟.. الرسول هو النبي، عليه الصلاة والسلام، بشخصه ولحمه ودمه وحضوره الكريم، والنور والدفء المنبعثين منه علينا.. هل دفء الرسول أقل - أو أكثر - من دفء النبي؟..

أبداً، إنه هو هو..

لكن هناك ما يجب أن نقف عنده، عند النبي.. وعند الرسول.. صلوات الله وسلامه عليه..

❖ ❖ ❖

ليس فقط لأن البعض يحاول أن يفصل بينهما، ويقول

إنهما وإن اتحدا في جسد رجل واحد، إلا أن الطاعة مطلوبة منا - بزعمهم -للرسول فقط وليس للنبي، مستندين في ذلك إلى أن آيات الطاعة جاءت مرتبطة بالرسول فقط، وليس بالنبي.. وذلك يجعلنا - حسب زعمهم - في حل من الارتباط من الالتزام بأوامر النبي.. لأن الطاعة، حسب زعمهم للرسول فقط.. وهذا الرأي لا يهدف التفريق الاصطلاحي بين الرسول والنبي فحسب، ولكنه يهدف تفريقنا عن سنة النبي كلها ، كل ما كانت عليه حياته عليه الصلاة والسلام..

والفصل القسري بين الرسول والنبي سيكون مثل الفصل بين توءمين بقلب واحد..

بفارق أن من سيموت، هو نحن!..



لكن، لأن السلام هنا في الصلاة كان على "النبي" فإنه لابد أن يكون لذلك معنى.. معنى لا يفصل بين النبي والرسول، ولكن يكامل بين المصطلحين، ويفعّل العلاقة بينهما.. ويجعلنا نزداد وعياً وتفاعلاً مع المفهومين..

معه هو، عليه الصلاة والسلام..



فلنحاول أن نعرف من هو الرسول، ومن هو النبي، ليس من مفاهيمنا السائدة، ولكن من القرآن الكريم نفسه، فمن هناك ينبغي أن تتبع مفاهيمنا.. من هناك ينبغي أن يبعث تصحيح ما هو سائد..

فلنحاول أن نبحث في الرسل والأنبياء، والتداخل الموجود بينهم في القرآن الكريم، بمعزل عن مفاهيمنا المتوارثة..

❖ ❖ ❖

هناك مجموعة من الرسل في القرآن الكريم، سنبدأ منهم لنفهم الطبيعة الوظيفية للرسل، واختلافها أو عدم اختلافها عن الطبيعة الوظيفية للأنبياء..

يذكر أولاً، في سورة الشعراء، عدداً من الرسل..

نوح ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٠٦-١٠٧].

هود ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٢٤-١٢٥].

صالح ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٤٢-١٤٣].

لوط ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٦١-١٦٢].

شعيب ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/١٧٧-١٧٨]..

أي إن هؤلاء الخمسة - عليهم السلام أجمعين - ذكروا بوضوح أنهم رسل.. وبحسب مفاهيمنا السائدة فإن كل رسول نبي.. لأن الرسالة أخص من النبوة..

إلا أن ذلك لن يثبت قرآنياً؛ أي إنه لا يوجد أي إشارة إلى أن كلاً من هؤلاء كان نبياً، باستثناء إشارة عامة قد تضع نوحاً في خانة الرسل/ الأنبياء ..﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾

[النساء: ٤/١٦٣]..

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾

[مريم: ١٩/٥٨]..

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

[الأحزاب: ٣٣/٧]..

وكذلك لوط أشير إلى أنه من ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٩].. وهكذا يبقى لدينا (٣) رسل فقط لم يقل عنهم أنهم أنبياء..

أما الأسماء المتبقية في قائمة الرسل فلا شيء - قرآنياً - يثبت أنهم أنبياء..

❖ ❖ ❖

أما قائمة الأنبياء فهي أوسع، وتضم يحيى ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/٣٩].

عيسى ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ١٩/٣٠].

إبراهيم ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ١٩/٤١].

إسحاق ويعقوب ﴿فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ١٩/٤٩].

موسى ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم: ١٩/٥١].

هارون ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٣].

إسماعيل ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٤].

إدريس ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ١٩/٥٦]..

وتضم أيضاً داوود ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ١٧/٥٥].

سليمان ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾ [ص: ٣٨/٣٠].

يوسف ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٤]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر: ٤٠/٣٤]..

وتضم بشكل غير مباشر اليسع ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٦].

والياس ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٥].

كما أن أيوب قد ذكر فيمن أوحي اليه ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ٤/١٦٣]..

وذكر ذو الكفل بشكل عام مع أنبياء آخرين ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/٨٥]..

ويبقى في هذه القائمة يونس الذي ذكر ضمن أسماء أخرى ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ٤/١٦٣] ممن أوحي إليهم..



لدينا ثلاثة أنواع من الفئات، عليهم السلام أجمعين..

الفئة الأولى، فئة رسل لم يقل عنهم أنبياء.

الفئة الثانية، فئة رسل وأنبياء..

الفئة الثالثة، فئة أنبياء لم يقل عنهم رسل، ويدخل ضمنهم من لم يذكر بوضوح أنهم أنبياء لكنهم عُدّوا كذلك..

ما الذي يتمخض عن ذلك كله؟..

إن مقولة "كل رسول نبي" - رغم انتشارها -لا تتلاءم مع حقيقة أن هناك رسلاً لم يذكر عنهم أنهم أنبياء..

ولعل عكس هذه المقولة "كل نبي رسول" هو الصحيح، وهو ما يتناسب مع المعطيات القرآنية الآنفة الذكر.. ومع آية أخرى شديدة الوضوح:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الأعراف: ٧/٩٤]..

﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾﴾ [الزخرف: ٤٣/٦]..

فالنبي هنا "قد أرسل"، وهذا يعني أنه رسول.. والآية تستخدم أسلوب التعميم بطريقة تشمل كل الأنبياء..

كما أن ذلك يتناسق أيضاً مع آية ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢/٢٢]..

فلو كان "النبي" متضمناً في الرسول، حسب مفهوم "كل رسول نبي" ما ذكر الوحي الكريم النبي بعد الرسول، فهذا يعني أن كلمة الرسول لم تغط معنى النبي، وأن النفي سيتضمن لاحقاً "النبي" الذي لم يرد معناه ولم يتضمن في كلمة الرسول..

وهذا يعني أن الرسول، عندما يكون غير النبي - فإنه لا يتضمنه..

وأن النبي - عكس الشائع - دوماً رسول..

مفهوم النبوة: المرحلة التالية

أين يضعنا هذا؟ وإلى أين سيأخذنا بالضبط؟..

إنه يأخذنا إلى مفهوم "النبوة" الذي سيبدو هنا أنه مرحلة أعلى من مفهوم الرسالة..

ورد هذا اللفظ عدة مرات في القرآن الكريم.. كان في كل مرة قطعاً يأتي ذكره مع الكتاب..

وفي (٣) مرات من أصل (٥)، سيكون ذكر النبوة، مرتبطاً، بالإضافة إلى الكتاب، مع الحكم..

وهكذا سيكون هناك متلازمة ثلاثية: النبوة - الكتاب - الحكم.

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [آل عمران: ٣/٧٩].

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأنعام: ٦/٨٩].

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ٤٥/١٦].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الحديد: ٥٧/٢٦].

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: ٢٩/٢٧]..

الحد بين الرسالة والنبوة

سنضع هذا في بالنا، ونعود خطوة إلى الوراء.. إلى الرسل الذين لم يثبت أنهم أنبياء.. فهناك، "الحد" بين الرسالة فقط، وبين النبوة التي تتضمن الرسالة..

في الفرق بين الرسل والأنبياء.. نجد المعنى الذي يجعلنا نلقي السلام عليه، ونحن نسميه النبي، وليس الرسول، صلوات الله عليه وسلامه بكل أسمائه..

الأسماء الثلاثة للرسل الذين كانوا رسلاً فقط، هي هود وصالح وشعيب.. وقصصهم تشبه قصص غيرهم من الرسل، بالذات تشبه قصة نوح ولوط اللذين خرجا من خانة الرسل فقط، إلى المرتبة التالية..

كانا في قومهما، وكان القوم في حالة بعد عن الله عز وجل، بمختلف معاني البعد، من الكفر والشرك إلى الفاحشة مروراً بالظلم الاجتماعي.. وكانت هناك "رسالة" - من الله عز وجل - عبر "الرسل"، مفادها أن العذاب قادم لا محالة، إن لم يحدث تغيير في نمط المفاهيم والسلوك التي يدين بها السواد الأعظم مجتمعياً. وفي الحالات الخمس كلها سيكون هناك العذاب، كما قال الرسل بالضبط.. بأشكاله المتعددة..

ما الذي يجعل نوحاً ولوطاً استثناءً من هذا وقد حل العذاب بقومهما كما حل بقوم صالح وهود وشعيب؟..

المختلف في السياق الخاص بكل منهما، أننا رأيناهما، ولو بشكل جزئي، وهما يكملان المسيرة. يمضيان مع الفئة التي آمنت بالرسالة.. ويبينان، أو على الأقل يحاولان إنشاء مجتمع بديل عن ذاك الذي تركاه..

أين كانت الإشارة إلى ذلك؟..

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ١١/٤٨]..

إنه نوح ما بعد الطوفان، هذا الذي سيحل عليه

"السلام" و "البركات"، فالسفينة لم تكن الهدف النهائي، والنجاة لم تكن كل القصة، ولكنه الوصول إلى البر الآمن.. إلى المجتمع البديل..

وأين الإشارة إلى ذلك مع لوط؟..

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ۝٧١﴾ [الأنبياء: ٢١/٧١]..

لقد انضم إلى إبراهيم.. وساهم معه في إنشاء مجتمع البركات العالمي: بركات للعالمين..



وهذا كله يوضح، بشكل قاطع وحاد، الحد بين مهمة الرسول، ومهمة النبي التي يوسع فيها مهمة الرسول..

فالنبي، لا يتخلى عن مهمة الرسول، إنه يحملها حتماً معه، وهو يظل، رسولاً بالتعريف، ما دام نبياً.. لكن مهمته لا تقتصر على إنقاذ ما يمكن إنقاذه من المجتمع فقط.. بل بناء مجتمع جديد.. المهمة لا تقتصر على إلقاء طوق النجاة، بل على إيجاد البديل.. بالذات على بناء البديل حجراً حجراً..



الرسالة من النظرية إلى التطبيق

مهمة الرسول تركز على "الفكرة" أكثر، تركز على "النظرية"، على فكرة أن الدمار قادم، وعلى فكرة أن الحل

يجب أن يبدأ من الأساس، مهمة النبي لا تنسخ ذلك طبعاً، ولكن تكملها، تتممها.. تحول الأمر إلى الحفر في الأساس ووضع حجر الأساس.. ورفع القواعد..

وبعبارة أخرى، مهمة النبي، تحتوي مهمة الرسول ضمنها، لأنها ستظل تحتوي على الرسالة، وعلى فكرة الرسالة ..لكنها تتجاوزها إلى أفق أبعد، إلى الواقع العملي الذي لا غنى عنه لأي نظرية، مهما كانت متقنة، ولا أي عقيدة، مهما كانت سليمة..

وبعبارة أخرى أشد وضوحاً، مهمة النبي، عملياً، تكمل وتتمم مهمة الرسول، على العكس من مهمة الرسول، التي ستظل بحاجة إلى مهمة النبي لإتمامها..

وبناء على ما سبق، وكنتيجة طبيعية: كان عليه الصلاة والسلام "خاتم النبيين"..

ذلك أن خاتم الأنبياء، هو حتماً، وضمناً، وبالتعريف المشار إليه، هو خاتم الرسل.. باعتبار أن مفهوم "النبي" يتمم مفهوم الرسول ويختمه....

ولذلك، قال الذكر الحكيم عنه - عليه الصلاة والسلام -: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠] ..ولم يقل خاتم الرسل.

بهذا المنظور صار الأمر الآن متناسقاً.. ومفهوماً..

❖ ❖ ❖

حقيقة أخرى تتوهج، لتتكامل مع هذه الحقيقة..

إنها حقيقة أنه - عليه الصلاة والسلام - لم يخاطب قط بـ "النبي" منفرداً عبر القرآن، إلا في العهد المدني، أي في السور المدنية..

قبلها، في القرآن المكي كله، كان يطلق عليه - عليه الصلاة والسلام - "الرسول".. باستثناء مرتين في سياق واحد ذكر أنه "الرسول النبي الأمي" (الأعراف ١٥٧-١٥٨)؛ أي إن ذكر النبي هنا لم يستقل عن ذكر الرسول كما لو أن ذلك كان مرحلة انتقالية بين المرحلتين.

لكن في المرحلة المدنية، ومع بداية مرحلة جديدة من الدعوة أدخلت مفردة جديدة في الخطاب القرآني للرسول الكريم هي النبوة..

ولفظ "نبي" جاء قطعاً في القرآن المكي، ولكن ليس لمخاطبته عليه الصلاة والسلام.. وإنما للإشارة إلى تجارب نبوية سبقت تجربته الرسولية. أما (يا أيها النبي) فلم ترد قطعاً إلا في المرحلة النبوية..

وفي ذلك دلالات واضحة تتفق مع ما توصلنا إليه من الفرق بين مهمة الرسول ومهمة النبي..

ذلك أن المرحلة المدنية كانت مرحلة التطبيق والبناء وتكوين ذلك المجتمع البديل، بل الحضارة البديلة بأسرها..

أما المرحلة المكية، فقد كانت مرحلة النظرية، مرحلة العقيدة والفكرة السابقة على البناء، والضرورية له..

لهذا كان الخطاب في المرحلة المكية مقتصراً على الرسول..

وتوسع في المرحلة المدنية، ليشمل المهمة الإضافية التي اضطلع بها، فصار يخاطب، بالإضافة إلى الرسول، بالنبي..

النبي، الذي ختم سلسلة الأنبياء.. وبالتالي سلسلة الرسل.

نبوة النبي لا تنسخ رسالته

لكن ما ينبغي الانتباه له، أن مصطلح "النبي" لم يلغ مصطلح "الرسول".. وطبعاً نحن نتحدث عن شخص واحد (عليه الصلاة والسلام)، شخص تدرج في حمل المسؤوليات والمهمات ومرّ بذلك بشكل تطوري ومتتال، إذن لا يمكن إحداث فصل حقيقي بين الرسول، والنبي..

يشبه الأمر أن طبيباً ما، تدرج في دراسته وتخصصه حتى صار جرّاحاً، ثم إنه أنهى تخصصاً دقيقاً في جراحة معينة فصار جراح أعصاب على سبيل المثال.. كونه جراح أعصاب لن يلغي أنه "جراح"، وهذا كله لن يلغي أنه طبيب.. لا يوجد "لقب" إضافي تحصل عليه، ينسخ لقبك السابق، وكذلك مقام النبوة؛ لن ينسخ مقام الرسالة..

"المرحلة المدنية".. مهمته عليه الصلاة والسلام فيها لم تلغ "المرحلة المكية" وجذورها بل ستحتويها..

لذا، سنجد في الآيات المدنية، خطاباً وإشارةً إليه،

عليه الصلاة والسلام، بصفته الرسولية، بالإضافة إلى صفته النبوية، تباركت كل صفاته عليه الصلاة والسلام..

ولذلك التداخل في المرحلة المدنية - بين الرسول والنبي - معنى لابد من الوقوف عنده..

إسقاط معاصر من أجل التطبيق

ذلك أنك عند التطبيق، يجب ألا تنفصل عن النظرية، عند البناء يجب ألا تحذف الخطة.. لذا تتكامل "الرسالة والنبوة" في المرحلة المدنية كما تتكامل النظرية مع التطبيق العملي.. وفي ذلك إشارة واضحة إلى أن التطبيق العملي، وبناء النموذج على أرض الواقع، يجب ألا يبتعد عن القيم الأساسية للنظرية، و "رفع القواعد" يجب ألا يبتعد عن "القواعد" نفسها.. ذلك أن كثيراً من الأفكار والمبادئ (والحديث هنا عن الديني والوضعي منها) تصطدم عند التطبيق، ليس بالواقع وصعوباته، بل بحقيقة أن بعض من يحمل مسؤولية التطبيق، يترك "قيم الرسالة" الأصلية، وخطة البناء والنسبة المقررة لخلطة الإسمنت، بحجة الإسراع بالبناء وبرفعه.. والنتيجة لهذا الأمر أن البناء قد لا يكون مطابقاً للمواصفات القياسية، أو حتى قريباً منها.. الأمر في مخاطبته عليه الصلاة والسلام، في المرحلة المدنية مرة بالرسول ومرة بالنبي، هو التأكيد على الأمرين معاً: النظرية، الفكرة، العقيدة - والتطبيق، البناء، السلوك..

ولقد التحما معاً، في تماه تام، لا مجال لتجزئته أو فصله، في شخص الرسول النبي الكريم..

لِمَ الطاعة للرسول؟

ضمن هذا التطور يمكن فهم لِمَ أن كل الآيات القرآنية، التي تأمر بطاعة الرسول، لم تأت إلا في المرحلة المدنية.. أي بعدما انتقل عليه الصلاة والسلام من مرحلة الدعوة، إلى مرحلة البناء الاجتماعي ومرحلة إعادة بناء العالم بشكل مباشر.. أي بعبارة أخرى، بعد أن حمل معه مرحلة الرسالة إلى مرحلة النبوة..

كل آية وردت فيها "طاعة الرسول" كانت حتماً مدنية، لكنها لم تستخدم المصطلح الجديد الذي استخدم لأول مرة في العهد المدني: النبي.. أي إن السياق ربط بين طاعة الله وطاعة الرسول في أكثر من مرة، لكن لم يذكر السياق طاعة "النبي" وهو الأمر الذي جعل (دعاة التفلت) يعدّونه تحللاً من طاعة "النبي" وأوامره، وليس من كل السنة النبوية فقط، ولكن من كل سياق قرآني ورد فيه لفظ النبي واحتوى على أمر شرعي، بدعوى أن الطاعة للرسول فقط، وليس للنبي..!

وقبل أن نؤكد عدم وجود انفصال حقيقي أو افتراضي بين الرسول والنبي في شخصه الكريم عليه الصلاة والسلام، نشير إلى أن الطاعة للرسول، تضم حتماً وطبعاً، الطاعة للنبي، لسبب بديهي هو أن النبي مكمل ومتمم لمهمة الرسول، وإذا كنت مطالباً ومأموراً بالطاعة للرسول، فإنك، ومن باب أولى، مطالب بالطاعة للنبي، الذي هو المرحلة الأعلى والمتممة للرسول..

الاتباع أقوى...

الأمر الآخر، الذي لابد من التنبه له هنا، هو أن "الاتباع" الذي اقترن مع "الرسول النبي الأُمي"؛ وهو المركب الذي جمع "الرسول النبي" ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (١٥٧)﴾ [الأعراف: ١٥٧/٧] أقوى من الطاعة، لأن الطاعة انقياد لأمر واضح ومحدد، أما "الاتباع" فهو أن "تراه فتمضي خلفه"..

واتباع "الرسول النبي" جاء قبل الطاعة، جاء بالذات في الفترة المكية، لأن الاتباع مطلوب فيما سيأتي، والاتباع سيكون أساساً للطاعة..

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١/٣] ستليها فوراً ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢/٣]..

فالاتباع والطاعة هنا مرتبطان معاً بطريقة لا يمكن التمييز بينهما..

كما أن الرسول النبي الأمي، هو واحد..

وطاعته واتباعه واجبان على كل من آمن به..

"رسول" لكنه "النبي"

الأمر الذي يلفت النظر أيضاً أن الرسول الكريم، قد ذكر بوصفه رسولاً - من دون تعريف - في أكثر من مرة في الخطاب القرآني..

﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: ٨١/٣]..

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ [البقرة: ٨٧/٢]..

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ١٠١/٢]..

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤/٣]..

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨/٩]..

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤/٣]..

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١/٢]..

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦/١٦]..

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢/٦٢]..

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزمل: ٧٣/١٥]..

أي إن السياق القرآني في كل هذه الآيات قد استخدم لفظ "رسول" من دون تعريف، لا بالإضافة ولا بأل التعريف، والسياق كان يشير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام.. هو ما يعرف لغوياً: بالتنكير للتفخيم..

لكن هذا الأمر لم يحدث مع لفظ "النبي" أبداً..

لم يحدث أبداً أن جاء الخطاب القرآني، بلفظ "نبي" من دون التعريف، ويكون السياق موجهاً إليه عليه الصلاة والسلام..

ولم يحدث هناك أبداً أن جاء الخطاب القرآني بلفظ "النبي" - بالتعريف - إلى نبيٍّ آخر، غيره عليه الصلاة والسلام..

ما الذي يعنيه ذلك؟..

يعني أنه ربما كان هناك أنبياء كثر قبله عليه الصلاة والسلام.. ولكن، كان هناك دوماً نبي واحد فقط سيكون هو النبي بالإطلاق..

و "النبي" - بالإطلاق - تعني أنه "النبي" المطلق، الذي سيقوم بالدور الأقصى لنبي، سيقوم بالمهمة التي حاول القيام بها كل الأنبياء من قبل.. لكنه هو وحده، عليه الصلاة والسلام، سيذهب إلى المدى الأبعد، إلى المدى الذي فيه نهاية الشوط كله..

الأنبياء كثيرون، لكن "النبي" واحد..

ولقد كان اسمه دوماً "النبي"..

انتظروه دوماً على هذا الأساس.. وكانوا يعرفون أن أنبياء سيأتون وسيرحلون، منهم من سينجح، ومنهم من لم ينجح، ومنهم من سيقتل قبل أن يصل لسفح آماله..

لكن واحداً منهم، واحد فقط، سيختصر تاريخ النبوة، ويقوم بما لم يقم به أحد، واحد فقط، سيتمكن من أن ينطلق من الصفر الاجتماعي، ويصل إلى القمة.. بلا تواصل مع إرث أنبياء آخرين، واحد فقط سيتمكن بمفرده من أن يبني ما لم يبنه سواه.. سيتمكن من أن يثبت أن ذلك ممكن..

ولهذا فهو "النبي"..



وتحفظ لنا ذاكرة التاريخ، موقفاً لابد أن يذهلنا وقد وصلنا لحقيقة أن هذه المفردة لم تستخدم إلا له عليه الصلاة والسلام، ما هو هذا الموقف؟.. وكيف احتفظت به ذاكرة التاريخ؟..

ها هي ذي وثيقة تاريخية، من العهد الجديد "المتداول إلى يومنا هذا والمعترف به كنسياً" (إنجيل يوحنا، الإصحاح ١٩-٢٠) تنقل لنا ذلك الانتظار المسكون بالشغف.. للنبي.. للنبي بالإطلاق..

وإنها شهادة يحيى.. أو يوحنا المعمدان، كما تسميه الأناجيل، حين أرسل اليهود من أورشليم بعض الكهنة

واللاويين يسألونه: ("من أنت؟".. فاعترف ولم ينكر بل أكد قائلاً: "لست أنا المسيح". فسألوه: ماذا إذن؟.. هل أنت إيليا؟.. قال: "لست إياه!.." .. "أو أنت النبي؟.." .. فأجاب: "لا!"..)

ليس المسيح، ولا إيليا، ولا "النبي"..

إذن المسيح غير النبي!..

كانوا ينتظرون النبي.. كانوا يعرفون أن هناك المسيح.. وأن هناك سواه، من أسموه، من وجدوه مكتوباً عندهم بأنه، ليس مجردَ نبي، كما قد يكون المسيح، أو إيليا..

لكنه "النبي".. بالمطلق..

نبي آخر الزمان ؟

هل يعني هذا أنه نبي آخر الزمان؟..

ربما.. لكن الأصح أنه نبي كل زمان.. النبي الذي ستكون نبوته متجاوزة لأطر الزمان والمكان.. النبوة، التي ستظل دوماً قادرة على أن تؤدي وظيفتها.. حتى بعد زوال الزمان والمكان الذي أنزلت ضمنه تلك النبوة..

إنه "النبي" الذي يظل يمدنا بالإنباء، حتى بعد وفاته.. عليه الصلاة والسلام..

لا تتحد السنن.. تحد نفسك

أمر ينبغي ألا يفوتنا هنا، وهو جدير بالانتباه، إلى أن

مخاطبتنا له عليه الصلاة والسلام ظلت مباشرة، كما لو أنه موجود معنا، بقينا نقول: "السلام عليك أيها النبي"، لم تتغير، بعد وفاته علية الصلاة والسلام، لتصبح بصيغة أخرى.. لم تتغير، حتى في أثناء حياته، عندما كان أصحابه يصلونها بعيداً عنه..

إنها صيغة غير مرتبطة بزمان ومكان محددين بوجوده الشخصي؛ لكنها صيغة تستحضره وتستحضر وجوده والدفء المنبعث من وجوده، صيغة تتحدى الزمان والمكان، وتتحدى حقيقة أنه مات عليه الصلاة والسلام، رغم إقرارنا لها، لكنها صيغة تتحدى أن الموت يمكن أن يطوي كل شيء، فحضوره يتعدى الحضور الجسدي الفيزيائي الذي طواه فعلاً الموت، لكن استحضاره، واستثمار حضوره سيستعاد في تلك الأبعاد غير الجسدية..

سنقول، ونحن نعرف أنه قد مات، "السلام عليك أيها النبي" نقولها.. فهل نحن نحاول التحدث معه وهو في قبره الشريف؟.. هل نحاول أن نتحدى سُنة الموت التي جرت على كل أبناء آدم ومن ضمنهم أشرف خلقه؟..

لا طبعاً، لكن نحاول تحدي أنفسنا ..عبر إحيائه عليه الصلاة والسلام فيها، إذا كان قد مات جسدياً فهذا لا يعني أن دور القدوة، دور الأسوة الحسنة، دور المثل الأعلى، قد مات.. أو حتى أنه معرض للموت.. هذه الصيغة لا نوجهها له في قبره، بل إلى حيث يجب أن يستمر في الحياة.. في أنفسنا، في عقولنا، عملية تفاعل

مستمرة بيننا وبين (دوره) هذا، نكون نحن مسؤولين عن قدح زناد هذا التفاعل، عبر استحضاره في أنفسنا، في جزء خاص لا يمكن تحديده مكانياً أو فيزيائياً.. لكن هذا الجزء الخاص مهم جداً في الوقت نفسه لأنه يمارس دوراً تربوياً في اللا وعي..

الطراز الأصيل

هل هذا الجزء الخاص هو ما يسمى في علم النفس "**الطراز الأصيل**" archetype[(١)] والذي يشبه الحاجة الأصيلة العميقة داخل النفس البشرية إلى دور القدوة/ الأسوة الحسنة؟..

هذه الحاجة الموغلة في القدم إلى بطل ما يعبر عن القيم ويجسدها في شخصه.. وهي الحاجة التي تم ملؤها عبر العصور وفي مختلف الحضارات عبر أبطال الأساطير والحكايات الشعبية، وأيضاً عبر الأنبياء والزعماء الروحيين.. ويتم ملؤه حالياً - عبر وسائل الإعلام - بالنموذج العولمي الهوليودي..

ربما كان الأمر شيئاً كهذا، وربما كان أكثر، لكن هذا المصطلح النفسي - **الطراز الأصيل** - هو أقرب ما أجده شخصياً، لما يمكن أن يملأه عليه الصلاة والسلام في

(١) الطراز الأصيل:archetype مصطلح أسسه عالم النفس السويسري كارل يونغ و يعني به وجود أنماط أساسية وأصيلة داخل النفس البشرية تشترك فيها كل الأمم و تشكل جزءاً أساسياً من العقل الجمعي بحسب يونغ.

داخلنا، وملؤه لا يكون عبر ألفاظ محبة مجردة وشعارات وأناشيد، بل أن يكون موجوداً وحاضراً في ذلك الحيز بشكل فعال، بشكل أن يكون بتعاليمه، بأخلاقياته، بسلوكياته وممارساته، الجزء الذي يتحكم بنا، بسلوكنا منا.. أي أن يكون الجزء الفعال من المركب المعقد من الوعي واللاوعي الذي قد يسمى أحياناً "الضمير"..

فلنتذكر هنا السياق الذي ورد فيه السلام عليه، "السلام عليك أيها النبي، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" كما لو أن هذا التتالي في الذكر (النبي أولاً عليه الصلاة والسلام، ثم نحن، ثم العباد الصالحون) سيؤدي إلى تلك النتيجة: عباد الله الصالحين، كما لو أن التفاعل بين "النبي" - الموجود في ضمائرنا - وبيننا، هو الذي سيؤدي إلى "عباد الله الصالحين".. أي إلى أن نكون نحن منهم..

ولكن ينبغي أن نذكر أن السلام ليس مجرد إلقاء التحية، بل هو عملية التخلص واستئصال الآفات المعيقة للنمو، وعلينا أن نذكر أيضاً أن عباد الله الصالحين ليسوا هم الدراويش، بل هم من يرث الأرض..

هكذا يبدو الأمر منطقياً الآن، فالتواصل معه عليه الصلاة والسلام، عندما يكون موجوداً فينا، واستحضاره، سيساعدنا على التخلص من آفاتنا وأمراضنا، سيكون السلام هنا عملية تفاعل داخلي، سيكرسها وسيقويها استشعارنا أنه موجود بالقرب منا..

إننا نخاطبه بهذه الصيغة لا لكي تصله في قبره

الشريف.. ولكن لكي يتقوى وجوده في ذلك الحيز في أنفسنا..

لكي نستشعر وجوده بقربنا..

كما لو أنه قريب جداً منا..

في الحجرة المجاورة..

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾ [الحجرات: ٤٩/٤-٥]..

دوماً عوملت هذه الآيات بشكل ضيق، بشكل يخص سبب نزولها المباشر، ولم نعد نرى منها غير سطحها المباشر، وربما العمق الذي يلي ذلك السطح، الذي يركز على أدبيات الحديث وذوقيات التعامل..

لكن هناك، من وراء الآيات، ومن وراء الحجرات، سيأتي ذلك المعنى الذي يتحدى قفص "التاريخية" الذي يحاولون أسْرَ النصوص في داخله.. المعنى الذي يجعل النص مطلقاً مهما بدا متعلقاً بفترة تاريخية مباشرة للوهلة الأولى - يتوهج ليكون خارج كل زمان ومكان..

وها أنت ذا تقرأ النص فإذا بك تقرؤه للمرة الأولى حقاً ..وها هو ذا النبي الكريم يبدو قريباً جداً لدرجة أنك لست مضطراً لرفع صوتك لكي تسمعه..

إنه قريب جداً، ليس هناك ما يحجزك عنه، ولا ما يحجزه عنك..

ولهذا فأنت تقول: السلام عليك أيها النبي..

قد يكون في الحجرة نفسها، أو في الحجرة المجاورة، وسيكون شعورك واستحضارك كما لو أنه سيدخل عليك فجأة.. أو أنه قد دخل فعلاً..

عليه الصلاة والسلام..



ولا بد أيضاً من أن ننتبه إلى أن النبي الكريم لم يخاطبه ربه في القرآن الكريم باسمه المجرد قط.. كما فعل مع أنبياء آخرين، مثل سيدنا موسى، ومع رسل آخرين مثل سيدنا هود..

دوماً كان هناك يا أيها النبي - يا أيها الرسول، لكنه، عليه الصلاة والسلام، لم يخاطب أبداً بـ (يا محمد)..

كما أن اسمه الشريف، لم يأت أبداً بمعزل عن تأكيد كونه الرسول، أو الذي بصفته من أنزلت عليه الرسالة..

كما لو أنه لا وجود لشيء شخصي تماماً مما يمكن عزله عن محمد الرسول أو النبي.. كما لو أن كل ما في حياته قد تماهى مع دوري الرسالة والنبوة..

حتى اسمه لم يعد يمكن عزله عن ذلك..

صلوات الله وسلامه عليه..



هنا، في هذه المرحلة بالذات، يأتي التشهد.. لا قبل.. ولا بعد..

لماذا الآن؟.. "الشهادتان" يمكن توقعهما في البداية باعتبارهما المدخل الأساسي(١) للإسلام لكنها تأتي هنا في المنتصف لتوضح ارتباطها بمناحي الحياة المختلفة و التحامهما بها بشكل لا يمكن فصلهما عنها..

لم الشهادة للرسول وليس للنبي؟

لكن لماذا جاءت الشهادة مع "محمد رسول الله" و ليس مع النبوة،لماذا لم تذكر الشهادة الثانية محمداً النبي؟..

ببساطة، لأن الشهادة، كمدخل للإسلام، تتطلب أولاً الإيمان بالرسالة، وبعدها سيكون تطبيق بقية الأركان التي إن طبقت بشكلها ومعناها الاجتماعي فإنها ستعطي معنى التطبيق النبوي الذي هو أصل وجوهر النبوة نفسها، الشهادة هي الإيمان بالنظرية، التي لابد منها للقيام بالتطبيق، لن تستطيع أن تطبق شيئاً، أو حتى أن تفهم هذا التطبيق إن لم تفهم الإطار الفكري العام، وهو الشهادة هنا، والرسالة تحديداً..

كما أن الشهادة هي المدخل، فالمدخل لا يختصر البناء، فإن كونه رسولاً عليه الصلاة والسلام، لن يكفي لوصف دوره، الذي أضيف إليه دوره النبوي المكمل والخاتم..

الشهادة تشير إلى الرسالة فقط..

لكن كل الأركان اللاحقة، وأولها الصلاة، ستكرس

(١) يمكن مراجعة جزء ملكوت الواقع من هذه السلسلة للتذكير بدور الشهادتين.

الفهم الشمولي الحقيقي للإسلام.. فهماً تتكامل فيه ومن خلاله العقيدة والسلوك، والنظرية والتطبيق، ويتكامل فيه أيضاً، محمد الرسول، عليه الصلاة والسلام، صاحب الرسالة، ومحمد النبي، عليه الصلاة والسلام، صاحب التطبيق، الوحيد الذي تمكن من جسر الهوة بين الفكر والسلوك.. فترك لنا إمكانية ذلك متاحة دوماً..

حرك به العالم !

ومع الشهادة يأتي تحريك لأصبع السبابة (أو رفعه).. وهو "تحريك" سيبدو للبعض كما لو أنه بلا معنى ولا مغزى، كما لو أنه عليه الصلاة والسلام، كان سيفعل شيئاً لا تسكنه الحكمة..

نفعل ما يفعله عليه الصلاة والسلام، إن فهمنا المغزى.. سيتوهج الضوء من تطبيقنا.. وإن لم نفهم سنفعل أيضاً على أمل فهم لاحق، على أمل ضوء لاحق..

لكن المعنى يبدو متوهجاً: إنه أصبع واحد من أصل خمسة أصابع.. وهو يرتفع عند نطقنا بالشهادة..

ألا يبدو ذلك واضحاً؟.. إنه الركن الأول.. نرفع أصبعاً واحداً هنا ..بقيت أربعة أصابع وبقيت أيضاً أربعة أركان.. لن نرفع أصابعنا فيها، بل سنعمل بأيدينا، برؤوسنا، بكل ما فينا، من أجل "إقامتها".. السبابة ستتحرك عند التشهد، كرمز يحتوي معنى أن الشهادة ليست لفظاً فحسب، بل هي أيضاً "فعل" - "تحريك" - "حراك".. بل إنها في حقيقتها كل ذلك، لكنها تبدأ كلفظ - على

اللسان - كجزء من طبيعة الأشياء عندما تعلن عن نفسها، لكنها لا تقف عند طرف اللسان، بل تنطلق منه، لتصل إلى كل طرف في هذا العالم، تنطلق منه لتكون حركةً وسلوكاً وفعلاً، وستكون السبابة هنا، هي التي ستتحرك بينما كل أعضاء الجسد الأخرى في حالة سكون تام، وكأن ذلك رمز على أن انطلاق الحركة، انطلاق الفعل، يجب أن يبدأ من الشهادة، وأن هذه الحركة - التي هي صغيرة بحيث إنها تلاحظ بصعوبة - قد تمهد لحركة أكبر، قد تكون نواة لحراك قادم، حراك يرتكز على المعاني العميقة لكل الأركان.. حراك يقوم على هدم ما يجب هدمه.. وبناء ما يجب بناؤه.. من أجل ذلك العالم الجديد الممكن..

لا تستهن أبداً، بحركة صغيرة للسبابة في أثناء التشهد، فحركة صغيرة قد تؤدي إلى أكبر، ومثل قطعة دومينو صغيرة؛ واحدة تسقط، يمكن أن تطلق تفاعلاً متسلسلاً يؤدي إلى تغيير رقعة الدومينو كلها..

حركة صغيرة للسبابة، بهذا المعنى، بهذا الفهم، ستكون رجماً شديداً على الشياطين..

كما قال عليه الصلاة والسلام..



الفصل الثالث

خنادق من أجل "الإنسان"

لا ريب أن الصلاة على النبي الكريم، عليه أفضل الصلاة والسلام، صارت تشكل جزءاً من مظاهر ارتباطنا العاطفي به عليه الصلاة والسلام، بل إنها صارت، عند عموم الناس، لازمة تقليدية يقولونها عند إبدائهم الإعجاب بشيء ما (لا علاقة له أحياناً بالرسول الكريم ولا بأي شيء يتعلق به، بل قد يكون العكس هو الصحيح)، أو يقولونها عندما يحاولون تذكر اسم ما، أو قضية ما، كانت على طرف لسانهم، فيصلون عليه، عليه الصلاة والسلام، كما لو أن ذلك سيعينهم على التذكر، وقد يكون أمراً تافهاً سخيفاً لا معنى له على الإطلاق..

وأضف إلى هذا وذاك، هناك الاستخدام الذي لا يمكن انتقاده في الأناشيد والأشعار، والذي يسهم فعلاً في زيادة تعلقنا به، ولكن ربما ليس بالاتجاه "البنّاء" الذي يجب أن تتجه فيه، بل باتجاه عاطفي يبدأ بالعاطفة وينتهي بها، ولا "يثمر" شيئاً بعد ذلك من زيادة اقتداء وتأسٍّ (على سبيل المثال)..

ولا ريب أن كل هذا قد نتج أصلاً، من ضمن جملة أشياء، عن "فضل" الصلاة على النبي وأجرها، وهو أمر ثابت ولا جدال فيه، لكن المؤكد أيضاً، أن هذا "الأجر" لن يكون كاملاً - هذا إن كان أصلاً - إن لم يوضع العمل الأصلي في سياقِه ومقصده، وإن لم يؤدِّ أساساً إلى الهدف منه..

هل هناك هدف من الصلاة على النبي؟..

قد يستغرب البعض، تعودنا أن نتصور أن مجرد النطق بالأحرف المكونة للصلاة على النبي كفيل بالحصول على الأجر، وهذا وارد طبعاً، أو أنه على الأقل ليس موضع نقاش الآن.. لكن أمرين اثنين يجب أن يشار إليهما هنا:

الأول - أن الله عز وجل لا يأمر عباده بأمر إن لم يكن لحكمة، وحكمة تصب في المصب النهائي لما يريده الله للمشروع الإنساني.

الثاني - أن الصلاة على النبي الكريم - عليه أفضل الصلاة والسلام - صارت جزءاً من الصلاة نفسها. ولا يوجد جزء من الصلاة لا يرتبط، ويصب أيضاً، في المقصد منها؛ من كونها تلك الفريضة التي ترتقي بالفرد، تدربه على الارتقاء، من كونها ذلك الركن الذي تستند إليه في تكوين شخصيتك وإنمائها، من كونها تلك الدورة التدريبية التي يتعين عليك القيام بها دوماً من أجل أن تجوِّد أداءك في العالم..

و "الصلاة على النبي" ليست مجرد جزء من الصلاة، وأنا هنا لا أقصد الحديث الفقهي عن توصيفها، ولكن أقصد أننا وصلنا بها إلى نهاية الصلاة تقريباً، أي إننا الآن في قمة الجبل، في ذروة الصلاة، ولا بد أننا سنجد معنى استثنائياً هناك - لا ريب أن في الصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - كنزاً دفيناً من المعاني، سيتوهج فينا، في أثره فينا، لو أننا استطعنا استثماره بالشكل الصحيح..

"الصلاة على النبي"، قبل نهاية الصلاة، هناك عند الذروة..

لابد أن هناك "ذروة" ما..



تعود الصلاة على النبي، أو ما يعرف بالصلوات الإبراهيمية، إلى الأمر القرآني الواضح بالصلاة والسلام عليه، وهو الأمر الذي مهد له، في الآية ذاتها، بأن الله وملائكته يصلون على النبي، والذي اقترن وتلاحم مع الأمر الإلهي بالصلاة عليه في الآية نفسها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣].. ولهذا مغزى عميق ولا بد.. يجب التنبه له، والبحث عنه..

والحقيقة أن سياق سورة الأحزاب كله، سياق موحٍ، ولا بد من الوقوف عنده..

الأحزاب والحدود والخنادق...

والنظرة الشاملة للسورة، ستعطينا ملاحظتين تصبان في صلب موضوعنا كله:

الملاحظة الأولى، أن السورة تضم مجموعة من الآيات التي ترسم حدود العلاقة بين المؤمنين والنبي. وهي آيات تتدرج من الحديث عن ميثاق النبيين بصورة عامة ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب: ٧/٣٣] إلى اتخاذ الرسول "أسوة حسنة" ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ۝٢١﴾ [الأحزاب: ٢١/٣٣] إلى أن تصل إلى القمة التي اختص بها عليه الصلاة والسلام حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَـٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣]..

الملاحظة الثانية، أن السورة، في الوقت نفسه، تحتوي على تفاصيل تشريعية حياتية، مثل النهي عن جعل الزوجات أمهات، وأن زوجات النبي أمهات المؤمنين، وإنهاء التبني، وعدم الخضوع في القول ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝٣٢﴾ [الأحزاب: ٣٢/٣٣]، وعدم التبرج تبرج الجاهلية الأولى [الأحزاب: ٣٣/٣٣]

ومشكلة "زيد مع زوجته [الأحزاب: ٣٣/٣٧]، وبيان المحارم [الأحزاب: ٣٣/٥٥]، وذكر آداب الدخول على النبي [الأحزاب: ٣٣/٥٣]، وصولاً إلى فرض لباس المرأة [الأحزاب: ٣٣/٥٩].. وكلها أحكام تشريعية واضحة، لا لبس فيها ولا غموض..

السورة كلها، بسياقيها هذين، تنزلت وأنزلت في خضم أحداث غزوة الأحزاب - غزوة الخندق - كما هو واضح؛ وهي الغزوة التي اختلفت عن سابقاتها بأنها كانت مواجهة ليس مع مشركي مكة فحسب كما في غزوتي بدر وأحد؛ بل إنها كانت مع مشركي مكة ويهود المدينة ومنافقيها أيضاً، كذلك كانت مواجهة مفتوحة مع كل الاحتمالات الكامنة في الطبيعة البشرية المضادة لمهمة النبي..

ما الذي يجعل هذه الأحكام التشريعية التفصيلية، تتنزل في خضم هذه المواجهة؟ وما الذي جعل هذا كله يمتزج بآيات مقام النبوة؟..

ستكون طبعاً هناك نظرة سطحية ومتسرعة تتصور أن السياقات تداخلت بعضها مع بعض بسبب "توقيت النزول" لا أكثر، لكن الأمر حتماً أعمق من مجرد التوقيت؛ ذلك أن هناك شبكة من المعاني الداخلية تربط بين السياقات، وإن كانت تبدو للوهلة الأولى غير مترابطة.

النقاط على الحروف

سنلاحظ في الآيات التشريعية التفصيلية أنها كلها تدور

حول معنى واحد وإن اختلفت تفصيلاتها: معنى وضع النقاط على الحروف، وضع كل شيء في موضعه الذي يجب أن يكون فيه، توضيح الحدود في العلاقات بين الأشخاص والمفاهيم.

فلنأخذ هذا المعنى، ونقرأ آيات الأحكام من جديد، فإذا بكل حكم تشريعي يتوضح أكثر، وإذا به قد أنزل من أجل إلغاء الضبابية والمطاطية التي قد تطرأ على العلاقات والمفاهيم..

فالنهي الواضح عن الاستمرار بالأدعياء "التبني" و "المظاهرة" - أي أن يقسم الرجل أن زوجته عليه كظهر أمه - إنهاء لهذه الحالة الضبابية في العلاقات التي لا أساس بيولوجي لها، بل بمجرد كلمة تقال ومفهوم مطاط يتلبس العلاقات بين الأشخاص، وضعُ النقط على الحروف سيكون مرة أخرى واضحاً في ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٢٨-٢٩]، أي إن الأمر هنا يتطلب الحسم: إما هذا، أو ذاك.. لا منطقة وسطى، لا خيار ثالثاً. والأمر ذاته سينسحب على "عدم الخضوع بالقول"؛ فالأمر هنا لا يخص القول نفسه، بل حتى لهجته ولحنه، لكي تكون الأمور واضحة ولا تترك المجال لباب مفتوح هنا أو نافذة مفتوحة هناك. يجب أن يكون القول "معروفاً" للجميع،

بمنتهى القطع والحسم الذي يمكن لكلمة أن تحمله.
الوضوح نفسه الذي يتطلبه حدوث مشكلة بين زوجين (زيد ابن ثابت وزوجه زينب)، نعرف كيف يمكن لمشكلة من هذا النوع أن تقابل بمطاطية وميوعة في التشخيص، ومطاطية وميوعة في العلاج، والنتيجة أن المشكلة ستظل قائمة لأنها لم تواجه بوضوح، لذا جاءت الآية القرآنية أقصى ما يمكن من وضوح للمشكلة وعلاجها، وتجاوزت ذلك أن قامت "بنسف" عملي لمفهوم "الأدعياء" عبر تزويجه عليه الصلاة والسلام من زوجة زيد الذي كان ابنه بالتبني..

الوضوح القاطع نفسه سيتحلى في تبيان الطلاق قبل الدخول، وكيف إن كان نكاحاً اسمياً (لم يتحقق بالفعل) لا ينتج عنه "عدّة"، فالوضوح في حدود العلاقة هنا واضح من أجل الوصول إلى حكم شرعي لاحق.

الوضوح نفسه، ووضع النقط على الحروف، وترسيم الحدود، - يتجلى في آداب الدخول على بيوت النبي، في سياق يعدُّ تجاوز هذه الحدود وانتهاكها "أذى".. وسيحدد السياق، بوضوح أيضاً، أن علاقة المؤمنين بزوجات النبي ستكون بضوابط وحدود، وأنها ستكون من وراء "حجاب"، وأنها لن تصل يوماً ما إلى انتهاك هذا الحجاب من بعد الرسول عليه الصلاة والسلام..

الوضوح نفسه في العلاقة سيتجلى في تحديد "المحارم" الذين لا جُناح على المرأة معهن.. وبالتأكيد في "إدناء" الثياب كحد فاصل بين المعرفة والأذى..

كل هذه الآيات التشريعية، بتفاصيلها تصب في هذا المصب: توضيح "حدود" العلاقات بين الأفراد، وجعل المفاهيم التي تربطهم بعضهم ببعض واضحة وضوح الشمس.. لا لبس.. لا غموض.. لا ضباب.. لا مطاطية..

فلنتذكر أن هذا كله تنزل في أثناء حفر الخندق.. أي إن الآيات كانت تحفر الخنادق وتوضح المفاهيم والحدود بينما كان الصحابة يحفرون الخندق على أرض الواقع.. ولنتنبّه هنا أن الخندق أنقذ دولة المدينة كما ستعمل خنادق الآيات على إنقاذ وحماية المجتمع..

التمادي الأصيل والكابح الضروري

لكن لماذا كل هذا؟..

ربما لأن الإنسان، بطبيعته، يميل إلى "التمادي"، يتجاوز عندما لا يجد رادعاً أمامه يكبحه، إنه يفعل ذلك كجزء من طبيعته الإنسانية، التي ستحتاج إلى "الكابح" و "الحد" لكي تتمكن من الاتجاه إلى الطريق الصحيح دون أن تتجه إلى طرق جانبية هنا وهناك. ولذلك نرى أن الكوابح والحدود - هنا في هذه السورة - تتركز على العلاقات الاجتماعية، العلاقات بين الآباء والأبناء؛ أو أدعيائهم، - بين الأزواج والزوجات، بين الرجل والمرأة عموماً، بين الناس عموماً في علاقاتهم بعضهم ببعض، بالضبط في حدود لا ينبغي تجاوزها في هذه العلاقات..

لماذا الحدود التفصيلية في هذا بالذات؟..

لأن هذه الملاقات، وبمختلف أنواعها، يمكن أن تتحول، إن لم تضبط وتقنن، إلى جبهات تستنزف جهود أفراد المجتمع، بل تستنزف حياتهم كلها، وتأخذهم إلى هذه الجهة، أو تلك، بين التمادي وخيبات الأمل والإحباط من جراء ذلك كله..

لذا، من أجل مسيرة أكثر رشاداً، وأكثر قابلية على تصويب الخطأ، وجدت هذه الحدود - الكوابح - لكي تسهل انطلاق الإنسان / المجتمع.. إلى حيث يجب أن ينطلق..

❖ ❖ ❖

لكن ما علاقة هذا النوع من التشريع بالسياق الآخر، السياق الذي يتحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام؟..

العلاقة بين السياقين هي أن الآيات الأخرى تتحدث أيضاً، بطريقة ما، عن تنظيم علاقة شخصية أخرى..

علاقة شخصية ليست ككل العلاقات، مع شخصية ليست ككل الشخصيات.. كل من تعرفه في حياتك من أشخاص، بخيرهم وشرهم، سيكونون في كفة، في ميزان، وهذه الشخصية ستكون في كفة أخرى، بل في مقياس آخر تماماً، خارج كل ما هو مشترك مع الآخرين..

إنه الشخص الأهم في حياتك..

بعبارة أخرى: إنه الشخص الذي يمكن أن يكون كذلك..

يمكن بمجموعة ضوابط وحدود ترسمها تلك الآيات..
عليه الصلاة والسلام..



يحدث كثيراً، أن نؤمن أن شخصاً ما قد يتمكن من تغيير حياتنا كلها.. أو من تغيير مسارها.. أو من ترك بصمة أو أثر لا يمحى من عليها.. (على الأقل)..

ويحدث هذا بالفعل أحياناً - ولكن نادراً - وغالباً ما نأمل ذلك من أشخاص قابلناهم للتو يتضح لاحقاً أن أثرهم النهائي على حياتك يمكن أن يهمل دون أدنى تأثير على محصلتها..

ولكن، هناك، مع كل ذلك، بعض الأشخاص يتمكنون من إحداث أثرٍ إيجابي مستديم على حياة الآخرين، ربما يكون ذلك عبر ارتباط مستديم متوازن، ارتباط عاطفي كالذي نأمل فيه دوماً، وقد يكون مجرد رفقة تجاوزت شروط الرفقة العادية لتتمكن من جلب الضوء..

وربما يكون ذلك أحياناً بطريقة شديدة الغموض والتعقيد: كلمة أو عبارة قيلت، من وجه تكاد تنسى ملامحه، لكن الكلمة تمكنت من اختراقك.. من زرع شيء في صحرائك، يذهب الوجه والشخص الذي خلفه.. ولكن تبقى الكلمة وقد حددت في داخلك تفاعلاً ما..

ربما من معلم ابتدائية تذكر اسمه فقط، وظل شاباً إلى الأبد في مخيلتك، بينما كبرت أنت وشخت، وظلت كلمته تلك علامة مضيئة على دربك..

ربما من شخص لم تخطط للقائه، ولم يلفت انتباهك يوم قابلته للمرة الأولى، لكن جملة قالها، في موقف ما، جعل الأمر كله يكون أفضل وأكثر إثماراً من ألف ميعاد..

يحدث هذا أحياناً.. ولكن نادراً.. وأغلب الأحيان تتشكل حياتنا وأنماط عيشنا وطرق تفكيرنا وفق قوالب معدة مسبقاً..

لكنه يحدث..



من بين كل أولئك الأشخاص هناك استثناء كبير واحد..

هناك استثناء واحد من بين البشر أجمعين، يمكن له أن يكون تلك البصمة التي ستترك أثرها على حياتك..

لا، ليست البصمة.. بل ذلك الأثر المستديم الذي يغمر حياتك كلها.. يمنحها الضوء والهواء والخصب والمعنى..

شخص واحد، من بين المليارات، يمكن أن يكون أثره على حياتك أكبر من تأثير والديك وشريك أو شريكة حياتك، ورئيس عملك عليك.. أكبر حتى من تأثير رئيس بلادك عليك..

شخص واحد فقط، سيتمكن من فعل ذلك بحياتك..

شروط العلاقة مع الشخص الأهم في حياتك

لكن "تمكنه" هذا، وإن كان نهائياً ومحسوماً، فإنه مشروط أيضاً، بأن "تمكنه" أنت من ذلك..

أي إن تأثيره في حياتك، لا ينتج من معادلة هو طرفها الوحيد.. لكن هناك طرف آخر، هو أنت، يجب أن يشارك، كطرف فاعل في المعادلة.. معادلة الأثر والتأثير التي يقودها هذا الشخص تتطلب منك أن تتخلى عن دورك السلبي في الأحداث. كل الأشخاص الذين تتأمل أو تعتقد أنهم سيغيرون حياتك، يمرّون فيها بطريقة قدرية جداً، وتتلقى أنت مرورهم كما لو كان صاعقةً أو حادثاً أو أي شيء آخر لا قدرة لك على منعه أو جلبه.. معه، هو وحده، ولأن المعادلة التي يقودها مختلفة جداً، ولأن أثره لن يكون مجرد بصمة، بل سيدخل في تركيب كل جزيئة وكل ذرة في حياتك، فإنك يجب، من البداية، أن تأخذ دورك، أن "تمكنه" من أن يتمكن من ذلك..

معه، ينتهي دورك كمتلقٍّ سلبي لا يملك من أمره شيئاً.. عليك الآن أن تقوم، من أجل أداء دورك.. من أجل أن يحدث ذلك التفاعل الذي يضع حياتك في السياق الذي يجب أن تكون فيه..

لكن انتبه: ذلك الشخص، لن يدق بابك، لن تلتقيه في العمل أو في الجامعة أو في السوق..

ذلك أنه - من الناحية الفيزيائية - قد توفي منذ أكثر من ألف سنة..

لقد أدى شروط "تفاعله" في المعادلة، على أكمل وجه ومعنى ..بقيت الشروط التي يجب أن تؤديها أنت: كي يحدث التفاعل..

ولأنها يمكن، وفق هذه الشروط، أن تصبح العلاقة الأهم والأكثر إثماراً وإنجازاً في حياتك:

فإن هذه العلاقة، مثل كل العلاقات، يجب أن تكون مشروطة، محفوفة بضوابط.. كي تكون مثمرة.. كي لا تتحول إلى استنزاف، كما كل العلاقات التي رسَمت حدودها آيات سورة الأحزاب..



ما الذي يعنيه هذا؟..

هل يمكن لعلاقتنا بالرسول الكريم أن تكون مشروطة؟.. يمكن لها أن تخرج عن مسارها الصحيح؟.. نعم، وسورة الأحزاب، التي وضعت حدود العلاقات بين الناس، وضعت أيضاً حدود علاقتنا وماهيتها بمقام النبوة..

بالضبط، لقد وضعت السورة خطين أحمرين يجب عدم تجاوزهما، وحددت في الوقت نفسه، طبيعة العلاقة الأكثر إثماراً وإنجازاً معه عليه الصلاة والسلام.. كيف؟..

لنبدأ بالخط الأحمر الأول..

الخط الأحمر الأول: بشرية الأنبياء

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾﴾

[الأحزاب: ٣٣/٧]..

ميثاق غليظ، للنبيين؟..

قيل عن هذا: إنه العهد، والوفاء باليمين، وتعاهد الأنبياء على اتباع بعضهم بعضاً.. وكل هذا لا جدال فيه وفي صوابه.. لكن شيئين اثنين قد يجعلاننا نبحث عن تخصيص أعمق للمعنى:

الأول - أن السياق كله، في سورة الأحزاب، يتحدث عن حدود العلاقات الشخصية، وميثاق النبيين الغليظ يوحي في هذا السياق بوجود علاقة متبادلة بيننا كبشر، وبينهم كأنبياء، لكنه "ميثاق النبيين"؛ لأن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام أجمعين - هم من يجب أن يحددوا ويوضحوا أسس هذه العلاقة مع أتباعهم: أن يمدّوها بالكوابح والروادع التي تمنع الأتباع من التجاوز.

الثاني - أن لفظ "الميثاق الغليظ" قد ورد في سياق آخر، يخص العلاقة الزوجية ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ [النساء: ٢١/٤] وهي العلاقة التي رسمت حدودها أيضاً في الأحزاب، وهذه إشارة واضحة إلى وجود نوع من العلاقة في لفظ الميثاق الغليظ الذي أخذه الله من النبيين..

فما هو ميثاق النبيين بالضبط؟..

تسلط الآية ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ

﴿لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾ [آل عمران: ٣/٨١] الضوء على الميثاق، وهذه الآية تتوافق مع التأويل القائل بأنه عهد الأنبياء على أن يتبع بعضهم بعضاً، ولكن فلننظر إلى السياق الذي تنزلت فيه هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ۝٧٩ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨٠﴾ [آل عمران: ٣/٧٩-٨٠]..

الآيتان السابقتان لميثاق النبيين توضحان - بما لا مجال فيه للشك - أن الميثاق، يتحدد أولاً بهذا الكابح الرادع الذي على الأنبياء توضيحه وإرساء أسسه: ألا يتحول الأنبياء أنفسهم إلى "أوثان". ألا يتحول الاتباع والاقتداء إلى تقديس مبالغ به وصولاً إلى التأليه..

هذا هو الخط الأحمر الأول، الذي كثيراً ما تجاوزته البشرية مع أنبيائها ومصلحيها وقادتها، ووضعتهم في الإطار ذاته الذي جاؤوا ليكسروا ويحطموا قوالبه: إطار تقديس الأشخاص كأشخاص، لذواتهم الخاصة، إطار يضعهم في مرتبة تفوق إمكانياتهم وتفوق حدودهم، وتجعلهم في مرتبة الألوهية ذاتها؛ سواء كان ذلك عبر افتراض "التماهي" مع الله عز وجل، أو أنه - تعالى شأنه - قد حلَّ فيهم، أو عبر أفكار أكثر سذاجة عن

إمكانات "لا بشرية" تجعلهم يفعلون ويلبون الاحتياجات حتى بعد وفاتهم.. وسواء كان المدخل إلى ذلك هو الميل الخرافي إلى المبالغة في تقديس الأشخاص، أو الميل إلى "التجسيم" باعتباره أكثر وضوحاً من الغيب الإلهي والمطلق الذي قد ينكص العقل الإنساني عن فهمه.. فإن النتيجة عبر المدخلين، هي واحدة: وهي أن هؤلاء الأنبياء والدعاة - وحتى الرجال الصالحون - سيتحولون عبر هاتين الآيتين - من قدوة هدفها الإصلاح، إلى أيقونات وثنية تكرس كل ما جاء هؤلاء لتحطيمه.. والأمر هنا لا يخص السيد المسيح فقط، وإن كان خير مثال عن ذلك الميل البشري إلى تجاوز الخط الأحمر وتأليه الأشخاص، ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٥/٧٥]، ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ٥/١١٦]، وما التأكيد القرآني على بشرية الرسل وعبوديتهم وأكلهم الطعام (في دلالة على حاجتهم البيولوجية للبقاء على قيد الحياة) إلا تأكيداً لهذا الخط الأحمر الذي ينبغي عدم تجاوزه، والذي أكده أيضاً عليه الصلاة والسلام، في نهيه المباشر والصريح

عن الغلو في الإطراء، الذي أدرك بحكمته النبوية أنه مع الوقت سيتحول من مجرد إطراء (قد يكون هدفه تكريساً عاطفياً للأتباع).. إلى شيء يقترب من المزالق التي سقطت فيها الأمم الأخرى.. (هل حدث ذلك أم لم يحدث؟..)..

علينا أن ننتبه هنا إلى أن التجارب التاريخية للمسلمين (وليس للإسلام) قد تجاوزت هذا الخط الأحمر وأكدت حقيقة هذا التمادي البشري، ما لم يكن هناك وعي بالرادع وبالخط الأحمر هنا، وهكذا فقد كانت هناك عوامل متعددة دفعت ببعض الفئات إلى التعامل بتمادٍ مع بعض الشخصيات التاريخية، التي كانت نماذجَ إيجابية (للرجال الصالحين) - ضمن إطارها الزمني والاجتماعي، لكن التمادي البشري فرّغها من كل إيجابية عبر تحويلهم إلى أيقونات وثنية تشفي بعد موتها من أمراض (كانت تصاب بها في حياتها!) وتلبي الحاجات من قبرها (حاجات لم تكن قادرة على تلبيتها في حياتها أيضاً!..) ومع أن عوامل متعددة (سياسية، عشائرية، طائفية - وحتى اقتصادية) تعمل على هذا الميل وتضخيمه، إلا أن "عدم الوعي" بهذا الخط الأحمر، والتأكيد القرآني على عدم تجاوزه - على كونه "الميثاق الغليظ" الذي أخذه الله عز وجل من الأنبياء.. عدم الوعي بكل ذلك، يسهل التمادي..

أو على الأقل: لا يكبح جماحه..

الخط الأحمر الثاني، أن لهم مكانتهم

أما الخط الأحمر الثاني، فهو الطرف الآخر من "التأليه".. إنه ما فعله بنو إسرائيل مع موسى، مقابل ما فعله النصارى بالمسيح.. إنه "الأذى" بالضد من "التأليه"..

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾ [الأحزاب: ٦٩/٣٣]..

الأذى الذي ذكره مرة أخرى في السورة، في الآية التي تلت أعلى مرتبة للنبوة، آية الصلاة على النبي، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾ [الأحزاب: ٥٧/٣٣]..

ونحن نعلم طبعاً أن الأذى بالمعنى الشائع لن يصيبه عز وجل، لا.. ولكن، مع الآية الأخرى، نفهم أن "الأذى" هنا هو الاتهامات الباطلة التي تمثل الخط الأحمر المضاد للتأليه، فبدلاً من ذلك الميل إلى التمادي في التقديس، هناك ميل آخر، بآلية مضادة، يعمل على اتهام الأنبياء، وإيذائهم، بطريقة تجعل من الخط الأحمر الأول شديد اللطف بالمقارنة..

تاريخ بني إسرائيل، كله، هو بالتأكيد تاريخ إيذاء لموسى بالذات، ابتداءً من ﴿إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤/٥] - إلى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا﴾ [الأعراف: ١٣٨/٧] - و ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣/٤] مروراً بـ ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ

وَاحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١/٢] - لكن السياق الذي هنا يقصد حتماً أذى آخرَ: أذى فيه تهمة باطلة طالت موسى بشكل مباشر، وليس مجرد "قعود" عن اتباعه.. قد يكون هذا الأذى هو ما كان يتقوله بنو إسرائيل عن موسى، وسبب حيائه من امتلاكه لعيب خلقي في عورته، وهذا ما ورد في التفاسير عموماً، وقد يكون الأمر أكبر من تفصيل صغير كهذا: لكنه حتماً يمس "الحياة الخاصة" لموسى، وللنبيين عموماً؟..

لماذا هذه الحتمية؟.. ليس فقط بسبب التفاسير التي فسرت أذى موسى، ولكن لتوازي ذلك مع أن السورة كلها تنزلت في فترة كان هناك نوع مماثل من الأذى يوجه بسهام المنافقين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام وأهل بيته.. وهو "أذى" لم ينحصر قط بتلك الفترة التي تنزلت فيها السورة، بل هو أذى سيستمر دوماً ما دام هناك صراع مع النفاق والكفر بأشكاله وأسمائه المتعددة. قد يكون ذلك تحت اسم "الاستشراق"، أو "البحث العلمي".. وقد يكون تحت أسماء وشعارات أخرى أكثر صراحة.. ولكن كلها ستصب في المصب نفسه في النهاية: إلحاق الأذى بخاتم النبيين عليه الصلاة والسلام..

الهدف: قتل الاقتداء

فلنتنبه هنا أن الخطين الأحمرين، على تناقضهما الظاهري، يشتركان معاً، في نتيجة واحدة. على الأقل: إن تجاوزهما، أو تجاوز أي منهما، يقتل الدور الحقيقي للنبوة؛ يقتل الاقتداء، يقتل الاتباع، يقتل إمكانية أن يكون النبي

"قدوة"، يمكن أن يتمثل أحد من أتباعه به، أن يغير حياته كما فعل، أن يعمل من أجل إصلاح المجتمع كما فعل.

كيف؟.. ببساطة شديدة، لأن إسباغ صفات الألوهية على أي نبي، سيفسر كل ما أنجزه هذا النبي في حياته - من تغيير لحياة الآخرين، للعالم - بناءً على تلك الصفات الإلهية التي فيه.. وذلك ما لا تستطيع أن "تقلده" فيه.. لأنك لا تملك هذا الجزء فيه، وهذا يجهض تماماً دور القدوة، ويحول العلاقة من علاقة اقتداء واتباع (وهو الشكل المثالي للعلاقة) إلى علاقة تقديس وحتى تعبد..

وهكذا يتحوّل "القدوة" إلى "أيقونة"، ربما محاطة بمزيد من الهيبة والقداسة، ولكنها معطلة عن العمل الذي يجب أن يقوم به "النبي".. إنها كافة ومكفوفة لا عمل لها غير تلقي النذور وشفاء المرضى (أي أخذ دور الوثن الذي جاء الأنبياء للإطاحة به)..

الخط الأحمر الثاني يؤدي إلى النتيجة نفسها ولكن المدخل جاء من ناحية أخرى مخالفة تماماً، فالاقتداء والاتباع يقتلان أيضاً عندما يتلطخ "النبي" بالأذى ..لا يمكنك أن تقتدي به، إن كنت في قرارة نفسك قد اقتنعت أن "الأذى" الذي وجه له كان حقيقةً.. لا يمكنك أن تقتدي به، أن تجعله مثلَك.. أن تسير على خطه، حتى مسيرته كلها ستبدو مختلفة، وأقل شأناً وأقل جدارة بالاتباع..

هذا "الأذى" الذي وجهوه يستهدف أتباعه بالدرجة

الأولى، عبر الأزمان، يستهدف دور النبي كقدوة فاعلة ومتفاعلة مع أتباعها والمؤمنين بها..

.. وهكذا.. فإننا نرى أن دور النبي / القدوة، هو المستهدف في الحالتين: التأليه - والانتقاص..

والنتيجة واحدة، وإن كان الطريق إليها مختلفاً في كل مرّة..

الصلاة عليه: الضمانة ضد الخطين الأحمرين

أستطيع أن أزعم أن الصلاة على النبي، عليه الصلاة والسلام، تتضمن "الحصانة" ضد هذين الخطين الأحمرين، هذا إن فهمت طبعاً بشكل صحيح، متجاوزين اعتبارها أكثر من مجرد ألفاظ تقال للحصول على فضل قولها وأجره..

كيف ذلك؟..

بالنسبة إلى الخط الأحمر الثاني (الأذى) فهذا واضح، فمجرد الصلاة عليه، والقول أن "الله وملائكته يصلون عليه" يعني الإقرار بأنه قد نال شرفاً لم ينله أحد من البشر، وهذا ينفي حقيقة "الأذى" المفترى ويستأصله من جذوره..

أما الخط الأحمر الأول، أي ميل البشر إلى التأليه، فإنه يلغى بمجرد التفكر في معنى الصلاة "على النبي"؛ فالصلاة عليه، أي قول: "اللهم صلِّ عليه" تعني أنك تدعو الله عز وجل أن يصلي عليه: والصلاة من الله هنا "الرحمة" أو المغفرة، وأنا لا أناقش معنى "الصلاة على النبي" الآن، ولكني أنبه، أنك عندما تطلب من الله الصلاة

أو الرحمة له عليه الصلاة والسلام، فإن ذلك تلقائياً يضع سيد الخلق، خارج موضوع "التأليه" برمته.. أي إن الصلاة عليه، تحمل في طياتها الضمانة بألا تتحول لتصير الصلاة "له"..

وبعبارة أخرى: إنها تضعه عليه الصلاة والسلام خارج ميل بعض البشر إلى تأليه أنبيائهم، وخارج نية البعض الآخر إيذاءهم..

وهذا كله مجرد مقدمة..

لأن معاني الصلاة عليه تضم ما هو أكثر من ذلك..



فلنتنبه هنا أن المعنى السائد للصلاة عليه، "الصلاة من الله رحمة، ومن الملائكة استغفار، ومن المؤمنين دعاء" هو معنى واسع جداً. والبحث عن معنى آخر من زاوية أخرى يرتبط وظيفياً بالصلاة ككل، ومن خلال القرآن نفسه لن يشكل خروجاً عن المعنى السائد ولاسيما إذا لم يكن "يتعارض" معه، وإذا لم يكن يتعارض مع معنى قرآني آخر..

تحت المجهر، الصلاة على النبي، عليه أفضل الصلاة والسلام..

الفصل الرابع

الصلاة على "الإنسان"..

ثلاث آيات تحت المجهر، قد تجعلنا نكتشف مجرات بعيدة، نحلق إليها، ثم نكتشف أنها موجودة في داخلنا..

ثلاث آيات تتحدث عن "الله" عندما يصلي على الإنسان، أو على نوع معين من الإنسان..

الآيات، في سياقها..

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢/١٥٤-١٥٧]..

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾

[الأحزاب: ٣٣/٤١-٤٣]..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦/٣٣]..

ثلاثة سياقات إذن، اثنان منها في سورة الأحزاب، ربما متقارب النزول، وواحد بتوقيت أبكر، في سورة البقرة.. وفي كل منها هناك "صلاة" من الله عز وجل على الإنسان.. لا، ليس على الإنسان بالمطلق، ليست صلاة على النوع الإنساني كله؛ بل على نوع من الإنسان..

فلننتبه هنا إلى الملاحظات التالية:

١- الأولى: أن صلاة الله موجهة إلى الجماعة المؤمنة؛ إلى المجتمع المؤمن. والفرد الوحيد الذي وجهت إليه - بشكل منفرد - كان النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام. ولذلك معانٍ لا تخفى على الصعيدين: مفهوم الجماعة، ومفهوم الفرد.

٢- الثانية: أن السياقات الثلاثة جاءت كلها في المرحلة المدنية، كأن صلاة الله على المؤمنين جاءت كاستحقاق لمرحلة لاحقة تلتحم فيها الفكرة مع تطبيقها. كأن ذلك لا يمكن أن يكون إلا عندما تنطلق العقيدة من الرؤوس إلى الواقع لتعمل على إعادة صياغته.

٣- الثالثة: أن السياقات التحمت بعضها مع بعض في السياق الثالث، وتوجت بالأمر الذي يربطها جميعاً: الأمر الإلهي للمؤمنين بأن يصلوا على النبي الكريم عليه الصلاة والسلام..

فلنتفحص السياقات الثلاثة.. لعل تداخلها ينير لنا دربنا.

الصلاة على بناة الحضارة الأوائل

السياق الأول جاء في مرحلة مدنية مبكرة على الأغلب، حيث إن سورة البقرة هي أول ما أنزل من القرآن الكريم في المدينة.. والسياق يوضح صعوبة المرحلة، فالمناخ المحيط بالآية، يؤكد لنا ما نعرفه من صعوبة المرحلة المدنية المبكرة، والجهد الشاق الذي بذله الجيل الأول في إرساء دعائم الحضارة الأولى..

فهناك من "يقتل في سبيل الله"؛ أي يدفع حياته ثمناً لقضية حضارة هي "في سبيل الله"، ولأنه دفعها ثمناً لقضية، فإن أثره لم يزل، مع أنه مات، لكنه ظل حياً - ما دام أثره الاجتماعي ظل قائماً - ما دام موته لم يذهب سدى - بل تراكم مع أفعال الآخرين، وحياتهم وموتهم أيضاً في سبيل الله لينجز "حياة" أفضل، "عالماً" أفضل..

وهناك أيضاً "الخوف" على القضية، على الحضارة الوليدة، و "الجوع" في عالم غير متوازن يزداد فيه الأغنياء شبعاً والفقراء جوعاً، و "نقص من الأموال" التي هي وسيلة مساعدة لتحقيق مشروع إعادة البناء و "الأنفس" التي من دونها ستكون الأموال بلا فائدة و "الثمرات" التي هي الحصيلة النهائية، والتي لم تأتِ بعد لأن العمل لم ينجز بعد.

إنها صورة لوضع متعب بالتأكيد، لكنه ليس محبطاً على الإطلاق. إنه وضع يشبه ولادة متعسرة في ظروف صعبة.. الأم التي تعاني آلام المخاض لا يمكن لها أن تنسحب.

ليس عندها هذا الخيار أصلاً.. عليها أن "تصبر" ذلك الصبر الإيجابي الفعال لكي تنتزع لوليدها الحياة من براثن الواقع الصعب..

وهؤلاء أيضاً، الذين في الصورة التي تقدمها الآيات، لديهم الصبر نفسه، لديهم المخاض نفسه، رجالاً ونساءً، ولذلك تأتيهم البشارة بعد كل ذلك الجهد والمشقة: "و بشر الصابرين"؛ ذلك أن صبرهم لم يكن صبر السكون والموت والجثث الهامدة، بل كان صبر الفاعلين: صبر المصرين على انتزاع معنى جديد للحياة: معنى الحياة الحقيقية..

دربهم ليس معبداً بالورود - هؤلاء الصابرون - لكن من قال: إن الدرب إلى الحياة الحقيقية يكون معبداً بالورود؟.. أبداً، بل لعل الصواب أنه غالباً ما يكون مفروشاً بالأشواك والزجاج المطحون.. ورد فعلهم تجاه هذا لا يكون منطلقاً من إعادة البناء والعمل، لذلك فإنهم عندما تصيبهم مصيبة - في مخاض صعب أصلاً - فإنهم يقولون: "إنا لله وإنا إليه راجعون" ليس كما نقولها طبعاً، أي ليس بالطريقة التقليدية التي تعطي معنى الاستسلام، هنا المعنى يرتبط فوراً بما قاله رائد من رواد تلك الرحلة العريقة، وستكون "إنا لله" هنا، وجهاً آخرَ مما قاله إبراهيم عليه السلام: "إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله"، وهل نحن، في النهاية، غير هذه الأشياء مع بعضها؛ فإما أن تكون لله، أو أن تكون لغيره، وها هم أولاء يقولونها: "إنا لله"، ليس بالمعنى التقليدي الذي

نقصد فيه أن الكل في النهاية سيذهبون إليه (عند الموت!)؛ بل يقصدون "إنهم لله": إن حياتهم كلها، أعمالهم كلها، جهدهم كله.. له.. لله.. وشتان ما بين المعنيين..

هنا، في خضم المخاض الصعب، يأتي نور ساطع، يحمل البشارة: أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة..

لقد استحقوا الصلوات عليهم من ربهم..



والسائد من التفاسير في تأويل هذه الآية الكريمة، لا يرى أن صلوات الله هنا "رحمة" - كما في السياقين الآخرين - لسبب بسيط وهو أن لفظ الرحمة جاء في السياق.. وهذا يعني أن الصلوات غير الرحمة..

قيل إنها المغفرة من ربهم..

وقيل أيضاً إنها الثناء من ربهم عليهم..

وهم "يستحقون" ذلك.. لن يمارض ذلك أنهم قد يستحقون شيئاً آخرَ.. ربما "الصلوات" تتضمن الرحمة والمغفرة والثناء.. وأيضاً شيئاً آخرَ..

الصلاة من أجل الإخراج من الظلمات

في السياق الثاني، يؤكد الفعل الإلهي ويعطف عليه فعل الملائكة، وهو الأمر الذي جعل التأويل يفصل بين صلاة الله على الذين آمنوا وصلاة الملائكة عليهم؛ فإن كانت صلاة الله تعني الرحمة فإن ذلك ليس بمقدور الملائكة؛ ولذا استقر معنى الصلاة على المؤمنين بأنه من الله

الرحمة، ومن الملائكة الاستغفار، أي طلب المغفرة لهم منه عز وجل ومن المؤمنين الدعاء..

لكن في الآية شيئاً آخر يلفت الانتباه، وهو أن الله يصلي على الذين آمنوا ليخرجهم من الظلمات إلى النور.. أي إن الآية هنا، تجعل من صلاة الله على المؤمنين سبباً لخروجهم من الظلمات إلى النور..

وطبعاً للرحمة الإلهية أشكال ومظاهر متعددة، لكنها هنا نوع خاص من الرحمة بالتأكيد.. كل ما في هذا الكون ينتمي لرحمته عز و جل بطريقة أو بأخرى.. لكن الصلاة هنا إن كان معناها رحمة فهي بالتأكيد رحمة يستشعرها المؤمنون بكثافة أكبر، بحيث إنها تخرجهم من الظلمات إلى النور... إنها رحمة، ولا بد بشكل خاص، بحيث إنها تأخذ أيدي المؤمنين، وتقود خطواتهم.. خطوة خطوة، من الظلمات إلى النور.



فلنتابع هذا الطريق (خطوة خطوة) من الظلمات إلى النور.. ولنرَ أي نوع من الرحمة هذه هي التي فتحت - قرآنياً - الطريق من الظلمات إلى النور.. فعبر استقراء الخطوات، قد تستطيع أن تفهم كيف صارت صلاة الله، على الذين آمنوا إخراجاً لهم من الظلمات إلى النور..

هناك ست آيات قرآنية كريمة، شهدت على الخروج من الظلمات إلى النور.. اثنتان منها مكيتان، والأربع الباقيات مدنية:

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ①﴾

[إبراهيم: ١٤/١]..

﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾

[إبراهيم: ١٤/٥]..

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]..

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٣]..

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الحديد: ٥٧/٩]..

﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ [الطلاق: ٦٥/١١]..

لنعزل الآن آية سورة الأحزاب لأننا نريد أن نفهمها من خلال الاستقراء العام، ولنحاول أن نحلل بقية الآيات ومفاهيمها..

هناك آية واحدة من الآيات ارتبطت بالكتاب بشكل مباشر [إبراهيم: ١٤/١]، وآيتان ارتبطتا بالآيات البينات أو المبينات (من الكتاب أيضاً) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ⑨﴾ [الحديد: ٥٧/٩] و ﴿رَّسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ

ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ قَدۡ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزۡقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق: ١١/٦٥]..

أي إن هناك ثلاث آيات ارتبطت بالكتاب، أو بآياته، بشكل مباشر، ورأت أن عملية الخروج من الظلمات إلى النور مرتبطة بالكتاب..

هناك آية واحدة فقط من الآيات الست، تتحدث عن سياق آخر غير سياق الرسول الكريم والذين آمنوا به؛ أي عن رسول آخر، وهو موسى ﴿أَنۡ أَخۡرِجۡ قَوۡمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ٥/١٤]، وهذه الآية على مسافة ثلاث آيات فقط من ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [إبراهيم: ١/١٤] كما لو أن المعنى هنا، يعطي للرسول الكريم، وللمؤمنين من بعده، مثالاً عن عملية "خروج" اجتماعي قام بها موسى من الظلمات إلى النور (مع ملاحظة أن موسى قاد خروجاً لقومه، إنما مهمة الرسول الكريم كانت إخراج "الناس" - كل الناس - من الظلمات إلى النور..).

إذن ثنائية الرسالة - الكتاب، متوافرة في هذه الآية أيضاً - فلا يبقى إلا آيتان الآن..

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧/٢]..

الله وليهم إذن، وذلك بالتوازي مع ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]..

إنه وليهم، والولي هو الناصر في لسان العرب، والولاية لا تكون إلا بتوافر ثلاثة أشياء "التدبير - والقدرة - والفعل"، وعندما يكون الله ولياً للذين آمنوا، ويخرجهم من الظلمات إلى النور، فذلك يعني أنه ينصرهم؛ يمدهم بالقوة.. في خروجهم ذاك، من الظلمات إلى النور..

لكن عملية "الولاية" هذه، بمعنى النصرة والإمداد بالقوة، لن تكون إلا ضمن سياقها؛ السياق الذي أنزلت هذه الآية ضمنه، فلم تنزل هذه الآية إلا بعد أن ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦] - وتبيان الرشد من الغي، والعروة الوثقى والاستمساك بها، لا يكون إلا عبر الرسالة والكتاب والنبوة، وهو ما يتوضح في متابعة آيات الولاية نفسها: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٥]، وصحيح أن "الولاية" ستكون في معظم الآيات لله، إلا أن سياق تبيان الرشد من الغي والاستمساك بالعروة الوثقى سيحدد اتجاه هذه الولاية وبوصلتها: نحو الرسالة والكتاب والنبي.

وهكذا فإن "الولاية" - التي ستخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور - تتطلب التبيان والوضوح

والاستمساك.. وكلها أمور لا توفرها إلا الرسالة والكتاب والنبي الذي جاء بهما.. يقدم عبرها "عروة وثقى" مثل حبل متين، نتمسك به لنخرج عبره من الظلمات.. إلى النور..



عندما تتداخل آيات الخروج من الظلمات إلى النور، سنرى فيها ثابتاً أساسياً، يدور حول الرسالة/ الكتاب، أي حول الرسول أو النبي..

دوماً هناك "رسول" ملازم لعملية الخروج من الظلمات إلى النور، سواء كان ذلك ممثلاً في موسى أو في الرسول الكريم، النبي الخاتم، والكتاب الذي معه، والآيات المبينات التي ميزت الرشد من الغي..

دوماً هناك "الرسول" في ذلك الخروج المبين من الظلمات إلى النور..

تلازمٌ لم ينفك في خمس من الآيات التي تحدثت عن ذلك الخروج..

ولا يمكن إلا أن يكون في الآية السادسة..

لابد أن يكون "الرسول" موجوداً هنا أيضاً..



إذا كانت صلاته عز وجل "على المؤمنين" تعني الرحمة.. فهي رحمته بهم بإرساله الرسول إليهم، بكتابه الذي أنزله معه، بالآيات البينات، بتبيانه الرشد من الغي..

يصلي عليهم، بأن رحمهم.. بأن جعل للنوع الإنساني كله - من بينه - رسولاً يساعدهم في ذلك الخروج من كل تلك الظلمات، إلى كل ذلك النور.. ويتوافق ذلك مع كونه، عليه الصلاة والسلام، لم يرسل إلا رحمةً للعالمين ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢١/١٠٧]..

رحمة نعم.. لكن ليس أي رحمة؛ بل رحمة بهذا المعنى: بمعنى الرسالة، والرسول الخاتم..

الصلاة من أجل إمدادهم بالقوة؟

لكن تداخل هذه الآيات، مع آية البقرة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ٢/١٥٧] قد يجعل من المعنى أكثر كثافة وتركيزاً..

فلنتذكر أن السياق هناك كان سياق المجاهدة والبناء، لدرجة دفع الحياة ثمناً من أجل قضية للحياة.. سياق الصبر الفاعل والمتفاعل تأتي البشارة الإلهية تحمل لهم "الصلوات والرحمة"..

هل الاستغفار هو الذي يبرز في سياق كهذا؟..

أم أنه المعنى الذي رأيناه قبل قليل، في واحدة من آيات الخروج، ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٧]..

وليهم وينصرهم، يمدهم بالقوة؟..

ألا يحتاج مشهد البناء والمجاهدة - في تلك اللحظة

المرهقة - إلى الإمداد الإلهي بالقوة؟.. ألا تبدو "الصلوات على المؤمنين" هنا تقوية إلهية لهم؟ إمداداً عاجلاً بالقوة في لحظة يحتاج فيها المؤمنون إلى ذلك؟..

أين دور الرسول في ذلك؟..

أكبر إمداد للقوة هو أن يمدك الله عز وجل بنموذج للقوة.. تمشي على هداه وتسير على خطواته.. خير مثال للقوة، هو أن تتجسد في مثال عملي.. في قدوة إنسانية تتمكن عبر التفاعل والتواصل معها من تقوية نفسك..

ستبدو "الصلوات على المؤمنين" إمداداً إلهياً يمزج بين القوة كقوة، وبين المثل النبوي المجسد لها..

وسيبدو السياق هنا أكثر تناسقاً من الصلوات بمعنى الاستغفار، دون أن يلغيه تماماً.. فالمغفرة الإلهية للمؤمنين تمدهم بالقوة أيضاً.. وتزيدهم إصراراً على المضي في الطريق..

مخاض النور..

والمدد الإلهي بالقوة، حاضرٌ أيضاً في صلاته عز وجل على الذين آمنوا لإخراجهم من الظلمات إلى النور..

ذلك أن خروجاً كهذا احتاج دوماً، وسيظل يحتاج، إلى قوة استثنائية..

البقاء في الظلمات، رغم الظلمات، أسهل من عملية الخروج.. ولو إلى النور..

البقاء في الظلمات، رغم أنها ظلمات، يمكن أن يجعل

المرء يتعود عليها، يتقولب عليها، يألفها، وربما حتى يحبها.. يحبها لأنها عالمه، جذوره فيها، نشأته فيها.. ولهذا فهو يحبها إلى درجة أنه لا يستطيع تركها، ولاسيما إذا أقنعوه أن تلك الظلمات ليست مظلمة حقاً، أقنعته عيونه وأهدابه أن النور كل النور فيها.. وأن كل ما هو خارجها هو الظلام الحقيقي..

سيقتنع الإنسان في تلك الظلمات أنه خفاش لا حياة له خارج تلك الظلمات..

حتى عندما يقتنع، فإن خروجه من تلك الظلمة سيحتاج إلى "قوة" ..إلى مدد إلهي..



والخروج من الظلمات إلى النور هو مثل عملية ولادة، مثل مخاض صعب يخوضه الإنسان ليخرج خلقاً آخرَ..

وإذا كان المخاض الأول الذي نأتي من خلاله إلى العالم يحدث بشكل لا إرادي..؛ فإن هناك مخاضاً آخر إرادياً، وواعياً، نخوضه بأنفسنا، ولا يخوضه أحد بالنيابة عنا، وهو لا يقل ألماً ولا قداسة عن المخاض الأول.. كل طلقة من طلقاته تحتاج إلى "قوة".. كل طلقة من طلقاته تحتاج إلى مدد إلهي يساعدك على تلك الولادة الجديدة.. الولادة الأهم ..ولادتك أنت.. خروجك من الظلمات إلى النور..

◆ ◆ ◆

وهو عز وجل، يصلي عليك.. يمدك بالقوة، يمنحك القوة لتساعدك في ذلك الخروج.. في تلك الولادة..

لقد بعثه لك خصيصاً ليخرجك من ظلماتك إلى نوره..

بعثه إليك، إلي، إلينا جميعاً، كي يكون هناك، يعطينا من قوته، كي نولد على يديه من جديد..

أفضل من أي جرّاح، أكثر مهارة من أي مجموعة تمريض متخصصة: على يديه - من جديد..

عليه الصلاة والسلام..

سراج في الظلمة

خيط رفيع جداً، يفصل أحياناً بين أكثر الأمور تناقضاً..

الفرق بين الحياة والموت جوعاً قد يكون في نصف رغيف خبز.

والفرق بين الحياة والموت عطشاً قد يكون في كأس من الماء..

(مع ذلك يموت الناس في هذا الكوكب عطشاً وجوعاً، بالبخل القلب الإنساني)..

الفرق بين الفجر، والعتمة خيط واحد..

والفرق بين الظلمة والنور.. شمعة واحدة.. شمعة واحدة فقط، يمكن لها أن تفصل بين الظلمة والنور..

أو سراج منير واحد، يمكن له أن يكون الفيصل بين الظلمات كلها والنور كله..

سراج منير..

هذا هو..

إنه السراج المنير، الذي بعثه الله لنا، ليخرجنا من الظلمات إلى النور..

ليست مصادفة - طبعاً - أن يكون وصفه تعالى للرسول الكريم بأنه "سراج منير" قد جاء في سورة الأحزاب.. وهي السورة التي حددت كل ما سبق ..﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٥-٤٦]..

وليس مصادفة أن هاتين الآيتين جاءتا عقب آية الخروج من الظلمات إلى النور، بالذات من أنه عز وجل يصلي علينا لنخرج من هناك إلى النور..

إنه يصلي علينا، بمعنى أنه يرحمنا، أرسل لنا ذلك الرجل عليه الصلاة والسلام.. ومنحنا القوة التي تلزم لذلك المخاض..

ثم أعطانا السراج المنير، الذي هو الفارق بين الظلمات والنور.. كل ما في صلاة الله على الذين آمنوا، لابد أن يؤدي إليه عليه الصلاة والسلام..

كما لو أنه الخروج من الظلمات إلى النور، لابد، حتماً وطبعاً، أن يكون من خلاله وعبره وبمعيته..

عليه الصلاة والسلام..

كل معاني الصلاة في الصلاة عليه

ماذا تعني الصلاة على محمد، عليه الصلاة والسلام، بهذا المفهوم؟..

ماذا يعني أن الله يصلي عليه، عليه أفضل الصلاة والسلام؟..

السائد أنها الرحمة منه تعالى، والثناء والتمجيد له في الملأ الأعلى..

وهذا لا يمنع طبعاً أن يكون هناك معانٍ أخرى، متضمنة في الرحمة الإلهية لسيد الخلق.. معان لها خصوصية تميزها عن صلاة الله على المؤمنين عامة، وتكون مناسبة لمكانته عليه الصلاة والسلام بصفته خاتم النبيين، بصفته الإنسان الذي تمكن من نقل مجتمعه - والعالم من بعده - من ذلك القاع، إلى تلك القمة التي وصلها، في عقود ثلاثة فحسب.. الصلاة والسلام عليه..



نعم الرحمة، ونعم الثناء والتمجيد.. ونعم الإمداد بالقوة والنصرة..

ونعم كل معاني الصلاة، كل معاني البناء، كل معاني النهوض، كل معاني القيام التي تجسدها الصلاة، كل معاني إعادة بناء العالم، كل معاني الإيجابية التي ضمنت في الصلاة؛ ترتبط هنا في الآية والأمر الإلهي، وفي

تنفيذها الذي صار جزءاً ختامياً من الصلاة، كلها، صارت مرتبطة به - عليه الصلاة والسلام - لأنها لا يمكن أن تتم، أو أن تنجز إن لم تكن على هديه وخطاه عليه الصلاة والسلام..

كما لو أن صلاة الله عز وجل على "النبي" عليه الصلاة والسلام تعني جعله، عليه الصلاة والسلام، يصل إلى المستحقات الأرضية التي تجعله مؤهلاً للمرتبة الإنسانية العليا، هناك عند ربّ العزة..

ما هي المستحقات الأرضية؟.. هي كل ما يجب إنجازه على الأرض في الفترة التي أعطيت لكل منا عليها (أي حياتنا)، هي كل ما يجب عمله في هذه الأرض، من استخلاف فيها وإقامة للعدل والحق..

وكل ما جسدته الصلاة عبر هيئاتها ومعانيها، كل ما وظفت الصلاة من أجل تكريسه فينا..

كأن صلاة الله عز وجل على محمد هي أن يمده بالقوة ليجعله كل ذلك، ليجسد فيه، كإنسان، كل معاني الصلاة، كل معاني إقامة الصلاة: إقامة الإنسان، الذي يقيم الحضارة..

وكأننا عندما نصلي عليه، نطلب منه عز وجل أن يجعله كل ذلك.. في كل كلمة قالها وكل فعل فعله.

حتى بعد وفاته أن يجعله يستمر عبر قيامنا نحن بذلك.. بأن يجعله يستمر عبر سيرنا على خطواته..

لماذا الملائكة أيضاً؟..

ربما لأنهم سبق أن أبدوا استدراكاً على النوع الإنساني، يوم أعلن الله عز وجل لهم أنه ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٢/٣٠] فقالوا: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٢/٣٠]..

مرت الأيام، وكان هناك بشر يثبتون دوماً أن الملائكة كانوا على حق، وآخرون كانوا ينحازون حتى لابليس، فينفذون ما أقسم أنه سيفعله.. ولكن.. جاء وقت، وجاء فيه بشر آخرون استطاعوا فعلاً أن يصلوا إلى المكانة التي أرادها الله لهم؛ مكانة الاستخلاف..

وجاء وقت، ووجد الملائكة أنفسهم، هم الذين وقفوا من الأمر - يوم كان - موقف المتسائل - وجدوا أنفسهم، وهم يصلون على هذا الإنسان، يطلبون من الله أن يمده بالقوة، أن يوصله لمرتبته العليا، أن يسهل له استحقاقاتها..

جاء وقت كهذا..

وسيجيء دوماً، مادام هناك إنسان يسير على خطاه عليه الصلاة والسلام.

معنى البركة: سر الاستمرار

والصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - ارتبطت في الصلاة، بدعاء البركة له.. عليه الصلاة والسلام

"اللهم بارك على محمد..". والبركة هنا هي تأكيد لكل ما سبق، وتثبيت له، إنها دعاء بأن يثبت ما سبق ضد عوامل الزمن والتعرية والمتغيرات..

إنها دعاء بأن يدوم ذلك النماء الذي جسدته الصلاة، أن يستمر، أن يثبت كما يبرك الجمل على أرض ما..

إنها دعاء بثبات كل ما سبق من إيجابية، من إنجاز، من قيم النهوض.. إنها دعاء بأن يستمر كل ذلك، متحدياً قوانين الأفول.. ليسَ عبر محض التحدي الفارغ، بل عبر فهم نقاط القوة واستثمارها، وفهم نقاط الضعف ومحاولة تجنبها..

إنها "البركة" التي قد تكون في أرض مباركة، أرض تمكن من استخلفها من تحقيق استثمار طويل لخيراتها ولظروف إنتاجها.. تمكن من جعلها مستمرة بالإنتاج..

وقد تكون البركة في شخص "مبارك"، لا يقتصر أثره على حضوره الجسدي، بل يبقى أثره الإيجابي حتى بعد أن يمضي، في كلماته، في أفعاله، في الاستمرار بطريقة ما..

وقد يكون في "أهل بيت"، في أسرة تمكنت من أن تكون مثالاً نابضاً بالفعالية والحيوية؛ وليس مجرد أناس يتشاطرون سكناً واحداً وتربطهم علاقات قربى..

وقد يكون في "أمة"، تظل منبعاً للقيم، تظل مصدراً للإشعاع، تظل حضارتها مثالاً يحتذى به..

ويكمن كل ذلك في "الاستمرار"، سر البركة هو في استمرار المعنى وإن تبدلت أشكاله ومظاهره.. أن يتقمص

الجوهر أعراضاً مختلفة لكنه يظل هو هو، في جوهره.. بل يظل يمتد في الزمان والمكان، متوسعاً - متمدداً - ناشراً خيره وقيمه إلى آفاق أبعد من تلك التي ولد فيها..

الدعاء بالبركة هو الدعاء بالخروج من حيز الزمان والمكان المحددين للإنجاز، إلى آفاق أبعد زمانياً ومكانياً.. إنه دعاء مضاد لكل دعاوى "التاريخية" التي تحاول حصر الإنجاز المحمدي داخل إطار تاريخي وجغرافي ضيق، وتحولها إلى تجربة "متحفية" غير قابلة لإعادة التطبيق أو حتى الاقتداء..

لكن كيف يمكن أن يتحقق هذا الاستمرار.. هذه البركة..؟

قبل محاولة الجواب عن هذا السؤال، هناك سؤال آخر..

لماذا إبراهيم؟..

لماذا ربطت الصلاة على محمد والبركة على محمد عليه الصلاة والسلام بالصلاة على إبراهيم عبر تشبيهها بالصلاة عليه؟ لماذا إبراهيم تحديداً؟.. ربما يجب أن نتنبه هنا أن صلاته عز وجل - على محمدٍ عليه الصلاة والسلام - جاءت بالصيغة المستمرة، بالمضارع المستمر الذي يشير إلى الزمن الحالي والزمن القادم في آن واحد.. بينما جاءت الصلاة على إبراهيم بصيغة الفعل الماضي، كما لو أن الدلالة هنا، أن كل الأنبياء وكل الذين آمنوا بهم، يحصلون على "الصلوات" في زمنهم؛ زمن الدعوة والبناء وبذل الجهد من أجل إقامة العدل وحضارته..

أما "محمد"، النبي الخاتم، عليه الصلاة والسلام، ولأن رسالته هي الخاتمة، فإن الصلاة الإلهية عليه جاءت بالصيغة المستمرة، وستظل تحل عليه وعلى المؤمنين به وأتباعه، ممن سيحملون (حقاً) سراجه المنير، ليسيروا على خطاه، ويعبّدوا الطريق، ويبنوا حضارة الغد على نوره..

لكن مرّة أخرى، لماذا إبراهيم تحديداً؟..

القطيعة المستحيلة والتراكم المتباعد

مكانة سيدنا إبراهيم أبعد من أن تختصر الآن وقد حاولنا الدخول فيها أكثر من مرة، لكن الإشارة هنا ربما ترتبط بما بين المسيرتين، وبين السيرتين، من "فجوة" زمنية قد تتجاوز الألف سنة (إن لم يكن أكثر، فلا أحد يعلم على وجه اليقين متى كانت المسيرة الإبراهيمية)..

ونحن ندعو الله أن يصلّيَ على محمد - عليه الصلاة والسلام - كما صلى على إبراهيم، وأن يبارك محمداً كما بارك إبراهيم، ليس بالرغم من هذه الفجوة الزمنية الشاسعة.. بل بسببها بالذات، فهذا الترابط بين المسيرتين - وبينهما أكثر من ألف سنة - سيعطيك الشعور الراسخ بأن المسيرة يمكن أن تتواصل وأن تترابط ولو توقفت لألف سنة..

وهذا الترابط سيشعرك بأن الشعلة قد تخبو لألف سنة، حتى يعتقد من يعتقد أنها قد انطفأت، لكن السراج المنير، وآليات عمله، يمكن لها أن تتغلب على فجوات كهذه

وتواصل، مما سيبدو أنه لا شيء.. لكنه في الحقيقة.. امتداد وجسرٌ لتلك الفجوة التي قد تتعدى القرون..

سيبدو الأمر، كما لو أن الرماد يغطي العالم كله، يحكي قصة ألف سنة من الانطفاء..

ولكن من تحت الرماد، سيأتي النور.. ليحدث ذلك الفرق بين الظلمات والنور..

(النور، لا النار..).



وهذا يعني أن الاستمرار كامن في المسيرة، وإن توقفت، وإن بدا أن الخطا تراجعت، وإن سار الجميع في طريق آخر، طريق مختلف، طريق باتجاه معاكس.. لكن المسيرة، رغم القطيعة، رغم الفجوة، ستنبعث، ستجد من يجعلها حية..

ولو بعد ألف عام..

آليات الاستمرار..

لكن كيف؟ وأين؟ وما الذي يجعل هذا الاستمرار كامناً وممكناً؟.. إنه السؤال نفسه الذي تركناه عن سر البركة.. بطريقة أو بأخرى.. والجواب ليس بعيداً على الإطلاق..

هذه المرة ليس نصف الجواب في السؤال..

بل كله..

إننا نذكر الجواب أصلاً.. حرفاً بحرف..

نذكره فيما يسمى الصلوات الإبراهيمية.. عندما نقول، بالحروف:

وعلى آل محمد..

الجواب عن الاستمرار، عن الكمون، يكمن هناك في "الآل"..

منظومة الصلاة لن" تناقض" نفسها

فلنتذكر أننا قد وصلنا النهاية، وأن تتابع السياق في كل خطوة من خطوات الصلاة قد كان متناسقاً داخل "منظومة" معينة، يمكن أن نسميها "منظومة صلاة"؛ منظومة كل ما فيها يعيد بناء الإنسان وتركيبه على أسس قيم جديدة تنحو نحو الإيجابية والنماء وتحقيق العدالة في الإنسان والمجتمع..

كل ما كان، منذ دعاء الاستفتاح، بل منذ النداء إلى الصلاة، كان يصب في هذا الاتجاه، في تصاعد مستمر، ولا يعقل أن تكون نقطة النهاية، خارجة عن هذه المنظومة.. ولا يعقل أكثر، أن نصل نقطة النهاية، لنجد معنىً معاكساً، لكل ما سبق تكريسه عبر المنظومة نفسها..

ولا يعقل أبداً، أن نصل نقطة النهاية، لنجد معنى كانت قد حاربته واستأصلته المنظومة القرآنية برمتها..



وللأسف، فإن المعنى السائد (في عمومه) للآل، هو

معنى لن يتناسق مع معاني منظومة الصلاة، إن لم يكن سيتعارض ويتناقض معها..

فالمعنى السائد للآل، الذي يفسر الآن بأنه قرابة الدم والنسب، أي المعنى البيولوجي المباشر البحت، هو حائط مسدود في نهاية الطريق سيكون الوصول إليه إحباطاً كبيراً بعد أن كان الطريق واعداً بالنماء والخصوبة..

المعنى البيولوجي للآل، لا معنى له هنا، لا موقع له من الإعراب ضمن منظومة الصلاة، لأنه - ببساطة - سيربط نهايات الأمور برابطة تم نسفها أصلاً عبر الخطاب القرآني..

كانت واحدة من أهم آليات "النسف" قد رسخت في سورة الأحزاب نفسها.. التي حفرت الخنادق ورسّمت الحدود في العلاقات بين الناس..

والعلاقة مع النبي عليه الصلاة والسلام..

رصاصة الرحمة على مفاهيم النسب

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٤٠]..

هذه الآية تلغي تماماً - مرة واحدة وإلى الأبد - أهمية علاقة قربى الدم بالرسول.. وتحدد أيضاً طبيعة العلاقة: إنه الرسول وخاتم الأنبياء الذي علاقتنا به علاقة اتباع، ولا شيء غير ذلك..

والاستدراك هنا، في الآية، يلغي أي علاقة أخرى محتملة من النوع نفسه.. إنه ليس - ولم يكن - أباً لأي من رجالكم، ولكنه رسول الله الذي ختم النبوة، وأنهى - مرة واحدة وإلى الأبد - كل التعقيدات والمضاعفات التي يمكن أن تنتج عن كون النبي له ذرية....

هذه التعقيدات المحتملة اجتماعية بطبيعتها، وكانت ستجعل لهذه الذرية مكانة معينة، قد لا تكون هذه الذرية مكافئة لها، وهذا قد يؤدي إلى أن يساء استخدام هذه المكانة.. وهذا أمر افتراضي ما دام أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكن أباً لأحد.

وهكذا فإن ابن نوح - مثلاً - لم يكن كفؤاً لمكانة والده، ولم يكن أولاد يعقوب كلهم بالمكانة نفسها، وقد استوضح إبراهيم، عندما جعله الله إماماً للناس، بعد أن أتمَّ الكلمات بالعمل والتطبيق فسأل الله إن كانت ذريته ستنال شرف الإمامة أيضاً: ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢/١٢٤] - فمجرد كون الذرية مرتبطة بعلاقة قربى مباشرة للنبي - مهما كانت مكانته - لا يمنحها خصوصية وتميزاً إلا إذا قرنت ذلك بالعمل الصالح وباتباع ما كان عليه الآباء..

وهكذا فإن الانتماء بالقربى لنبي، لن يمنح أي أحد بطاقة بيضاء تخوله أن يتصرف بمعزل عن اتباع هذا النبي وأوامره.. وسيكون معيار الاتباع هو معيار تقييم هذه الذرية، وليس معيار "الجينات" التي تحملها وشجرة النسب التي تعتز بها..

وهكذا فإننا سنرى في ذرية النبيين ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم: ١٩/٥٩]..

وضمن كل هذا، كان الخطأ يحدث في ذرية النبيين، لكن آلية التصحيح كانت تأتي عبر نبي آخر، في الذرية نفسها، يصحح ما بدر من انحراف لذرية النبي السابق.. وقومه..



لكن هذا كله كان يجب أن ينتهي..

كان على العقل الإنساني أن ينضج بما فيه الكفاية ليتجاوز هذا الأمر؛ ليتجاوز مفهوم السلالة المقدسة والدم المقدس التي كانت ستظل تؤخر مسيرته، ستظل تشعره أن هناك دماً أفضل من دمه، وأن هناك من يولد وهو يمتلك شرفاً لم يتعب في الحصول عليه..

وكان لابد لذلك أن يكرس عبر اقترانه بختم النبوة..

أي أن (يحرم) النبي الخاتم - عليه الصلاة والسلام - من أن يكون له عقب من أولاد ذكور..

وهكذا اقترن ختم النبوة، بختم هذا المفهوم، بنسفِه إلى الأبد..

هنا تنتهي خرافة النسب. وأوهام القرابة وإيديولوجيا الانتظار...

هنا نقطة النهاية على ذلك كله...

فلنتنبه هنا إلى النص القرآني يقول: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠].. أي إن النفي هنا يخص الرجال وليس الأطفال، لأنه عليه الصلاة والسلام، كان أباً لأولاد ذكور لم يصلوا الرجولة، بل إن ابنه إبراهيم وِلدَ في مرحلة لاحقة لتاريخ نزول السورة، لكنه كما هو معلوم توفي وهو طفل صغير، إذن شاءت الحكمة الإلهية أن يكون حرمان النبي الكريم من رؤية أولاده الذكور وهم يكبرون، ولكن كان ذلك ثمناً مقبولاً مقابل درس مهم للإنسانية؛ درس الخروج من مفهوم قداسة السلالة المنتمية لشخص ما مقدس..

درس الخروج من عالم الأشخاص وسلالاتهم، إلى عالم أفكارهم وهو العالم الحقيقي الذي يجب الولوج فيه والاستفادة منه..

ماذا عن أبوته للنساء؟

لكن لِمَ لم ينف النص القرآني أبوة محمد عليه الصلاة والسلام للنساء أيضاً؟.. بعبارة أخرى، لِمَ شاءت الحكمة الإلهية أن يكون محمداً عليه الصلاة والسلام أباً لنساء؟..

في الحقيقة إن السؤال الذي يجب أن يطرح معاكس تماماً؛ السؤال هو: هل كان يجب عليه أن يكون بلا ذرية تماماً لكي تفهم الإنسانية الدرس؟.. أما كان ذلك سيكون مدخلاً للطعن الشخصي في الرسول الكريم؟.. أما كان

ذلك فتح باب تجاوز الخطين الأحمرين اللذين مرَّ ذكرهما: خط التأليه الذي كان سيفسر عدم الإنجاب على أساسات تفترض أن شخصاً كان (بعض إله) لن يدنس مكانته بالإنجاب.. تعالى الله عن الحلول والاتحاد مع أي كان، حتى لو كان نبيه الخاتم..

من جهة أخرى، في الخط الأحمر الثاني، كان عدم الإنجاب سيفتح باب "الأذى" الشخصي الذي سيفترض وجود خلل ما أو عيب ما، أدى لعدم الإنجاب، وهو عيب ما كان سيعيب أي أحد يصاب به، لكن ألسنة المنافقين كانت ستلوك في ذلك..

لكن الحكمة الإلهية شاءت أن تعطي لنا مثالاً تطبيقياً من كل ما قدمته الآيات: لقد كان رجلاً من لحم ودم، هذا الذي بعثه الله لنا، كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، عليه الصلاة والسلام، مثلنا جميعاً، وكان يتزوج، مثلنا أيضاً، وينجب الذكور أو الإناث.. كما يحدث معنا..

لكن أولاده الذكور توفوا جميعاً، لكي يتكرس درس الآية العظيم ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٣٣/٤٠]..



لكن بناته بقين وتزوجن.. وواحدة منهن، السيدة فاطمة، أنجبت.. لقد أنجبت ذكرين اثنين هما السبطان الحسن والحسين..

السؤال الذي يجب أن يطرح هنا: هل كان على السيدة فاطمة ألا تنجب أبداً، أو تنجب الإناث فقط، كي تتمكن

البشرية من استيعاب الدرس.. استيعاب أن محمداً ليس - ولم يكن، ولن يكون - أباً لأي من رجالنا؟..

ماذا عن أولاد ابنته؟.. إنهما، عليهما السلام، أولاد أبيهما، علي بن أبي طالب، رضي الله عنه؛ وليسا أولاد النبي عليه الصلاة والسلام، وإن كانا حفيديه لابنته - لكنهما لن ينسبا إلا لأبيهما، هذا ما تقرره سورة الأحزاب أيضاً، في خندق آخر من خنادقها، ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [الأحزاب: ٥/٣٣] والآية لا تخص "الأدعياء"، بل هي عامة لأي أحد، ادعوهم لآبائهم ..﴿فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ﴾ [الأحزاب: ٥/٣٣]، أي إن عدم معرفة الأب، كان سيحل رابطة عامة هي رابطة الدين، بديلاً عن رابطة الدم والعشيرة والدم الافتراضي والقربى الافتراضية..

وهكذا فإن الأمر محسوم تماماً، ولم يذكر في القرآن الكريم أبداً، أن يكون ابن البنت، ابناً للجد بالمعنى الذي تركب وساد لاحقاً؛ بل إن الحالة الاستثنائية الوحيدة لولادة من غير أب - السيد المسيح عليه السلام - لم تنسب لعمران والد مريم؛ بل لمريم نفسها، ولو أن النسب كان يمكن أن يكون للجد والد الأم لكان حدث ذلك فعلاً..



على أننا هنا يجب أن نوضح وجود التباس في المفاهيم، بين مفهوم "الآل"، الذي تم تخليصه تماماً من

مفهوم القرابة، وبين مفهوم "أهل البيت" الذي هو مفهوم أكثر خصوصية، ويتضمن فعلاً القرابة بالنسب والدم: زوجات الرسول وبناته وذرياتهم.. لكننا في الصلاة، في ذروتها تحديداً، لا نصلي على أهل البيت، عليهم السلام جميعاً، بل نصلّي على الآل..

نذكر هذا، لنفك الاشتباك بين المفهومين..



الفصل الخامس

المفهوم المضيء للآل

المفهوم الآخر للآل، ليس جديداً وهو جزء مما كان العرب يدركونه ويفهمونه ويفهمون تنوعه في لسانهم ولغتهم، وكان "الآل" يعني - بالتأكيد ودون جدال - الأهل والقرابة، وهو المعنى الذي ساد لاحقاً..

لكن الآل كانت تعني أيضاً ما هو أكثر من ذلك..

وكان توظيفها القرآني، باستمرار، نحو هذا "الأكثر من ذلك".. نحو الأفق الأوسع للكلمة..

وهذا الأفق الأوسع لا يلغي المعنى السائد طبعاً.. إنه ليس موجهاً بالتأكيد ضد "القرابة" أو ضد ذرية النبي وأحفاده وأحفاد أحفاده، لكن حتى هؤلاء يصيرون خاضعين لمعيار مختلف، هم وغيرهم، وهذا يجعلهم داخلين ضمناً في المعنى الأوسع، إن هم وافقوا تلك المعايير..

مرة أخرى: المعنى الأوسع للآل لا يلغي المعنى السائد، ولكنه يوسع حدوده، ويضع معايير أدق..

لا شيء بالتأكيد ضد قرابة النسب. بحد ذاتها.

لكنها ستستبعد بالتأكيد كمعيار..

الآل قرآنياً...

أوضح مثال على ذلك، هو السياق الأكثر استخداماً لكلمة "آل" في القرآن الكريم..

مفردة "آل" وردت في القرآن الكريم (٢٦) مرة، نصفها بالضبط كانت تخص فرعون، أي آل فرعون..

هل هناك من يتصور أن المقصود من "آل فرعون" قرآنياً هم قرابته المرتبطة بنسب أو مصاهرة؟.. هل هناك من يتصور أن آل فرعون، هم أزواجه وذريته؟ أو على الأقل، هل هناك من يتصور أن المقصود هم أزواجه وذريته حصراً؟..

المعنى بالطبع أوسع، والقرابة لن تخرج بالضبط من المعنى الأوسع كما هو واضح؛ لكن معظم السياقات التي ورد فيها "آل فرعون" كانت تخص ما اتفق عليه المفسرون من "الأتباع".. ومن أهل دين فرعون وأهل مصر في وقته عامة، أو أمته..

وهذا المعنى يتناسق مع عموم السياقات القرآنية بخصوص آل فرعون.. وسيكون منطقياً أكثر أن أتباع فرعون هم "المغرقون" وليس مجرد أقربائه...

لا ينفي هذا أن "الآل " استخدمت في مواضع أخرى بشكل يجعلها قريبة من معنى القرابة، لكن هذا كان دوماً للتغليظ على من يخرج من الأتباع وهو ضمن القرابة: كما في امرأة نوح و امرأة لوط..و يقوي ذلك إخراج ابن نوح

من مفهوم الأهل كلياً ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ﴾ [هود: ١١/٤٦]، فذلك للتغليظ على من يخرج من الآل (الأتباع) رغم قرابته، بل إني أزعم هنا، أن تأكيدات من هذا النوع، ووعيداً لشخص من أقارب الرسول (عمه تحديداً) كان يرسم بالتدريج معنى مختلفاً للآل في أذهان المؤمنين، (ولاسيما في مفهوم آل فرعون) فالآل في الأصل كانت تعني القرابة، لكن المعاني لم تبق كما كانت منذ أن جاء القرآن ليبني عالماً جديداً ممكناً.. كل شيء صار له معنى آخر أكثر قرباً من الجوهر بشكل جديد، لم ينته "الدم" بالضبط، لكن العلاقات نفخت فيها روحاً جديدة، وصار للآل معنى جديد.

الأولون والآل

يندر أن نجد تفسيراً من التفاسير لم يتطرق للاختلاف في معنى الآل، مع أن المعنى السائد شعبياً يحصره - فيما يخص آل محمد عليه الصلاة و السلام- في القرابة..

لكن هذا الحسم السائد لم يكن موجوداً، وقد نقلت لنا كتب التراث أقوالاً عديدة لعلماء مهمين، كانت ترى في الآل معنى أوسع من معنى القرابة، وجمعت أحياناً بينهما..

رجح النووي مثلاً أن الآل هم الأمة جميعاً (موسوعة الفقه الإسلامي)..

وقال آخرون: إن الآل هم جميع أمة الإجابة.. وإليه

مال مالك والأزهري والنووي من الشافعية، والمحققون من الحنفية، وهو القول المقدم عند الحنابلة (الموسوعة الفقهية ١٣/١)..

وعبارة صاحب المغني (ابن قدامة): آل محمد (عليه الصلاة والسلام) هم أتباعه على دينه (المغني ٣٣/٢)..

ونقل صاحب غذاء الألباب في شرح منظومة الأدب (٣٠/١) عن ابن القيم عدة أقوال في الآل إلى أن قال: (القول الثالث: آله: أتباعه إلى يوم القيامة، حكاه ابن عبد البر، وأقدم من روي عنه هذا القول جابر بن عبد الله (رضي الله عنهما) ذكره البيهقي واختاره بعض الشافعية، وغالب علمائنا المتأخرين في مقام الدعاء خاصة.. والقول الرابع: إن آله هم الأتقياء من أمته، حكاه القاضي حسين والراغب وجماعة من العلماء..

ونقل ابن القيم في جلاء الأفهام (٢١/١) عن الذهبي:

آل النبي هم أتباع ملته   على الشريعة من عجم ومن عرب

لو لم يكن آله إلا قرابته   صلى المصلي على الطاغي أبي لهب

ونقل عن صاحب الإقناع: الآل هم الأتباع على الدين. وجاء في فتح الباري (١٣٧/٨): أنهم كل الأمة، وفي تحفة الأحوذي: الآل أهل الرجل وأتباعه وأولياؤه. وجاء في إعانة الطالبيين (١٤/١): الأصحاب جميعاً من الآل، (أي لا داعي لذكر (وعلى صحبه) إلحاقاً في الصلاة على الآل، وهو ما لم يثبت في السنة على أي حال، لكن لأنهم أصلاً متضمنون في الآل)..

وقال الشوكاني في نيل الأوطار (٤/٥٥): الآل: أهل الرجل وأتباعه، ولا ينفي هذا الاقتصار على البعض منهم في بعض الحالات..



بالإضافة إلى كل ذلك فإن المعنى القاموسي للآل يتضمن، ضمن تنوع المعاني الموجودة: الأتباع.. المعنى في ذلك موجود حتى في جذر الفعل آل: رجع، فالمرجع ليس فقط في قرابة الدم، بل هو أوضح وأجلى في قرابة الفكر والعقيدة، وهل من مرجع لأتباع محمد عليه الصلاة والسلام إلا محمد نفسه؟..

ما الذي حدث لمفهوم الآل؟

لكن لماذا ساد معنى القرابة حتى صارت كأنها مترادفة مع الآل؟..

لماذا صرنا نتصور أن آل محمد - عليه الصلاة والسلام - هم أقاربه وذريته وأحفاده إلى يومنا هذا؟!..

ألا ينطبق هذا المفهوم على آل إبراهيم بالضرورة، فيجعل من الصلاة على آل إبراهيم - بمعنى القرابة إلى يومنا هذا - تشمل أحفاد بني إسرائيل، الذين نعرف أنهم استحقوا الغضب واللعنة؟..

ما الذي حدث لمفهوم الآل حتى استقر بهذا الشكل، بعد أن كان هناك ذلك المفهوم الآخر؟..



الذي حدث هنا هو من بعض الخلط والاشتباك بين مفهوم "آل البيت" ومفهوم "الآل" كما أسلفنا. ومفهوم "أهل البيت" أخص من الآل، ويحتمل ألا يقصد به غير القرابة ولاسيما أن سياق الآية الكريمة ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٣٣] كان الحديث في الآية موجهاً إلى زوجاته عليه الصلاة والسلام، ولكن الآية لم تذكر نون النسوة في "عنكم"؛ لكي لا يحصر معنى أهل البيت في الزوجات فقط، بل يلحق به الذكور من الأقارب أيضاً..

إضافةً إلى ذلك، فإن تحريم الصدقة على "آل محمد" في أحاديث صحيحة معروفة، قد جعل من بعض الفقهاء والمفسرين يحصرون معنى "الآل" فيمن حرمت عليهم الصدقة من بني عبد المطلب، وبني العباس.. إلخ. والحق أن التحريم النبوي للصدقة كان مرتبطاً بهدف تربوي واضح وهو منع استغلال القرابة للنبي للحصول على أموال بلا عمل منتج، وهو هدف يمكن الحسم بأن المقصود فيه بالتدريج كل أتباع محمد الحقيقيين، الذين ركبتهم عقيدتهم وإيمانهم على العمل الصالح المنتج؛ أي على رفض البطالة ورفض قبول الصدقات إلا استثناء..

وبكل الأحوال فإن هذا الأمر، فضلاً عن كونه مرهوناً بمرحلة تاريخية معينة - لا يمكن أن يخصص ١٣ آية قرآنية ورد فيها الآل بمفهوم أبعد من مفهوم القرابة..

وللحقيقة، فإن جزءاً من اللبس والاشتباك بين المفهومين، يعود في جذوره إلى خلافات تاريخية وصراعات سياسية على السلطة، فليس سراً أن بعض أقطاب الصراع، والمطالبين بالسلطة، كانوا يمتلكون صلة نسب تعود لهذا العم أو ذاك من أعمامه عليه الصلاة والسلام، وهو أمر ما كان سيبرر احتكار السلطة بكل الأحوال، لكن تجييش العواطف تجاه "آل محمد" - عليه الصلاة والسلام - وعدّهم أنهم هم "الآل" دوناً عن غيرهم، كان سيعطيهم تلك المكانة المميزة، وسيجعل لهم سطوة وهيبة وحتى قداسة، قد تمنحهم الحصانة (وربما أشياء أخرى معها) في أذهان من التبس عندهم الأمر من عامة الناس..

كل هذا تداخل وتفاعل ليجعل هذا المفهوم الآن سائداً بهذا الشكل؛ ليجعل صلاتنا تنتهي عند ذلك الحائط المسدود، بعد أن كانت كل خطواتها السابقة، تهيئنا للانطلاق.. للتحليق نحو عالم جديد نبنيه بأنفسنا..

المفهوم الحركي الآل..

لكن ماذا عن المفهوم الآخر للآل؟..

كيف يمكن أن يتناسق وينسجم مع كل ما سبق من معاني الصلاة؟.. ولاسيما أن الصلاة ستنتهي هنا، ستنتهي بالآل، ستنتهي "وعلى آل محمد" صلاة ومباركة،مرتبطة بشكل وثيق بما قبلها من الصلاة على إبراهيم، وعلى آله، ومحمد عليهم الصلاة أجمعين..

في الحقيقة إن المفهوم الحقيقي للآل لن ينسجم فقط مع كل منظومة الصلاة بكل تركيباتها، بل إنه سيكون بمنزلة الهدف الأساسي منها.. سيقف مفهوم (آل محمد) في نقطة النهاية كما لو أنه الهدف الذي انطلقنا إليه منذ دعاء الاستفتاح، بل منذ النية، منذ أن لبينا النداء.. نداء الدعوة إلى حياة مبنية على الصلاة..بفارق أنهم هناك ليس لشفاء مريض أو قضاء حاجة من حوائج الناس..

سيقف آل محمد هناك، عليهم الصلاة أجمعين، كما لو أنهم ينتظرونك هناك.. لكنهم لن يكونوا لشفاء مريض أو قضاء حوائج الناس..

لا.. إنهم هناك لسبب آخر تماماً..



المفهوم الحقيقي للآل مفهوم حركي - ديناميكي - مختلف تماماً عن المفهوم الجامد السكوني للآل، الذي سيحيلك إلى القرابة البيولوجية التي لا يمكن التحقق منها بعد القرون المتطاولة، المفهوم الحقيقي للآل يحيلك إلى معنى آخر تماماً، وبدلاً من ذلك الحائط المسدود، يفتح لك نافذة على الآفاق المفتوحة، يعطيك المنصة للانطلاق.. للتحليق، للتحقيق..

لتحقيق ما خلقت من أجله..

الآل.. الآل يفعلون ذلك؟.. نعم.. إنهم يفعلون!

كيف؟..

عندما ينفتح مفهوم الآل ليخرج من أسر القرابة البيولوجية التي نسفها - كمعيار - القرآن الكريم،وهي قرابة حتمية لا إرادية يولد الإنساني فيمتلكها أو لا يمتلكها؛ إلى مفهوم الاتباع الذي يفعله الإنسان بإرادته وبوعيه، ليكون ولادته الجديدة التي يخوض مخاضها (بكل مصاعبها وآلامها) بإرادته هو..

فإن المخاض سيجيئه إلى هنا، إلى الآل..

بالذات في ذروة الصلاة..



عندما يخرج مفهوم الآل من سكونيته إلى منطقته الحرة المفتوحة، فإنه سيتسع ليتضمن إمكانية انضمامك إليه..

لن يكون الأمر سهلاً أو هيناً، لكن لا يوجد شيء خطير في هذا العالم، شيء يستحق الاهتمام، إلا وكان صعباً بل وشاقاً..

نعم، ليس الأمر سهلاً، وهو إضافة إلى ذلك تكليف وليس بالتشريف، وهو لا يشبه الحصول على بطاقة نسب تجعلك تزهو بين الناس..

إنه جهدك، إنه عملك وعرقك وكل ما هو أنت.. كل محياك، كل مماتك، يمكن أن يصب ليكون جزءاً من عملية انضمامك إلى الآل..

الانتماء إلى آل محمد

والانتماء إلى الآل عملية معقدة وبسيطة في آن..

بسيطة لأنها لا تشترط على أحد أن يكون من عرق أو لون معين، وليس عليك أن تكون ابناً لفلان أو علّان لقبول طلبك بالانتماء..

يمكن ألا تملك "واسطة" من أحد، وألا يكون عندك معارف على الإطلاق، لا بطاقة توصية مهمة من شخص ما مهم..

ومع ذلك، مع كل ذلك، يمكنك الانضمام..



وهي معقدة، لأن الانضمام إلى الآل ليس عملية دخول "مرة واحدة إلى الأبد.." أو إلى آخر حياتك..

لا، عملية تجديد الانتماء وتقييمه تتم دوماً، ربما كل دقيقة، وكل لحظة من حياتك، لذلك فإن الخروج من الآل، بعد الانضمام المبدئي أمر ممكن ووارد جداً..

لكن العودة إليه ممكنة أيضاً..

إنه مفهوم حركي مرن، يتوسع فيضمك، يتقلص فيخرجك.. وآلية القبض والبسط هذه لا تعود لأمور خارجة عن إرادتك..

إنه أنت من يقرر هذا.. أنت بعملك - بجهدك - من يتحمل مسؤولية انضمامك.. أو خروجك.. بقائك.. أو

عودتك.. وبين خيارات عديدة، ومفترقات طرق عديدة، سيكون هذا القرار، قرار الانضمام؛ البقاء - الخروج، ليس أهم قرار تأخذه في حياتك فحسب..

بل هو القرار الذي يختصر كل القرارات في حياتك.. كل ما ستأخذه من قرارات، كل ما ستحسم أمرك عنده، كل ما سيبدو مجرد أمر شخصي (ولا يخص أحداً سواك) سيرتبط بطريقة ما بذلك القرار.. بالبقاء في الآل.. أو بالخروج منه..



شرط واحد فقط.. سيفرضه عليك الانضمام للآل..

شرط واحد فقط، لكنه شرط قد يستغرق من الفرد حياته كلها، ومن الأمة متطلبات وجودها..

لكن هذا الانتماء بشقيه الفردي والاجتماعي لن يترك الفرد على حاله.. ولا الأمة على حالها..

الفرد يصبح إنساناً آخر..

والأمة لا تكون أصلاً.. إلا عبر هذا الشرط..

إنه شرط الكينونة.. والوجود الحقيقي..



ما هو هذا الشرط الذي لن نكون حتماً (أي كما يجب أن نكون) إلا عبره؟..

الاتباع!..

الاتباع: حقاً..

سيقولون: فسرت، بعد الجهد، الماءَ بالماءِ!..

لكن الأمر ليس كما نتصور؛ فمن بين كل المفاهيم التي اختزلت وقزمت فشوهها وأخل بها الاختزال، فإن مفهوم "الاتباع" تعرض لتقزيم ربما هو الأكثر تأثيراً مادام مفهوم "الاتباع" له، بطبيعته، نتائج عملية تطبيقية.. وعندما يتعرض مفهوم سلوكي - تطبيقي، له نتائج عملية مباشرة للاختزال والتقزيم، فإن ذلك، يجر بشكل مباشر أيضاً كل "المفاهيم" الأخرى التي ينبغي تطبيقها..

أي إن مفهوم "الاتباع" هو مفهوم مفتاحي لمفاهيم أخرى، وربما لكل ما يمكن تخيله من "مفاهيم" و "مثل" جسدت مسيرته عليه الصلاة والسلام..

وهكذا فإن الخلل في فهم "الاتباع" قد يؤدي إلى الإحباط والشلل في منظومة "القيم الفاعلة" كلها، أي سلب فاعليتها منها.. ومن ثم تحييدها عن الفعل والتفاعل..



ولأسباب كثيرة، ليس هنا مجال الخوض فيها فإن مفهوم الاتباع تقزم، وأدى ذلك إلى تحويله إلى "آلية" تقليد بعض المظاهر، وبعض الهيئات، وبعض الأذكار، فاعلة تماماً ضمن دائرة القيم الأوسع؛ ولكنها بفاعلية أقل حتماً عندما يتم إخراجها عن سياق القيم..

بعبارة أخرى: لا أحد يمكنه أن يقلل من دور المظاهر أو الهيئات باعتبارها جزءاً من الهوية الشخصية الحضارية، لكن ذلك يجب أن يكون مرتبطاً بشكل وثيق بالقيم والمكونات التي تؤسس هذه الشخصية، أي بالجوهر الذي يعبر عنه بالمظهر وبالهوية..

تقليل أهمية المظهر تتم في الحقيقة عبر الإصرار على اعتبار أن المظاهر منفصلة عن الجوهر، وأن الهوية هدف منفصل بحد ذاته ومستقل عن أي قيمة أخرى..

تفاعل مستمر دوماً..

اتباعه عليه الصلاة والسلام عملية تفاعل تقوم بها أنت، عملية "تحول" تمر بها بشخصيتك، بنفسيتك، بكل ما هو أنت، بدوافعك، بغاياتك، بآلياتك.. بكل تفصيل من تفاصيلك..

الاتباع هو عملية "تتبلور" فيها أنت من جديد، إنها عملية تعيد فيها تركيب ذاتك، وتعيد فيها تركيب أولوياتك.. وتعيد حتى تركيب جزيئاتك.. وعناصرك.. وذراتك.. تعيد تحريرك من ماضيك، من أغلالك وسلاسلك، وتطلقك نحو دائرة الفعل والفاعلية..

والاتباع - بهذه الطريقة - ليس بالضبط سيراً خلف خطواته عليه الصلاة والسلام في مسيرته النبوية، بل هو استمرارٌ في المسيرة كما لو أنه ما يزال يقودها...

إنه أن يتمثل - عليه الصلاة والسلام - في كل خطوة تخطوها.. إنه أن يكون هنا، يكون هناك، يكون في كل

مكان.. لا بمعنى الحرز والحماية (التي لم يبعث عليه الصلاة والسلام من أجلها على الإطلاق)، ولكن بمعنى أن تسأل نفسك في كل خطوة وكل موقف وكل مفترق طرق: ماذا كان سيفعل هنا عليه الصلاة والسلام؟.. أي طريق كان سيأخذ؟.. وأي شيء سيقول؟..

إنه أن يكون دوماً هناك مصدراً للإرشاد.. سمه "الضمير".. سمه "الذات العليا".. سمه "الطراز الأصيل".. وأضف إلى هذه التسميات ما شئت وما شاء أي أحد.. المهم أنه هناك، في أعماقك، بطريقة ما يقوم بدوره الذي يجعلك تقوم بدورك..

حجر أساس للنهضة: إرث محمد

اتباعه - عليه الصلاة والسلام - لغرض الانتماء إلى الآل أعمق بكثير من مجرد "تقليد" أعمى.. على العكس إنه اتباع مبصر، مستنير بالسراج الذي كانه الرسول عليه الصلاة والسلام..

إنه "اتباع" لخطواته عليه الصلاة والسلام، دون تفريق بين خطوة وأخرى هناك؛ إنه اتباع له بينما هو يزيح الأذى عن الطريق، واتباع له بينما هو يبني مجتمعاً جديداً من اللا شيء.. إنه اتباع له في تفاصيل طهارته الجسدية، واتباع له في نقاء أخلاقه وتهذيبه.. إنه اتباع له في رحمته وفي شدته، في توازنه وعدله، في خطواته الصغيرة، وفي مسيرته كلها..

مسيرة النهضة والنهوض التي جعلت العالم كله يتغير في مخاض استمر ثلاثة عقود فحسب..

إنه استناد إلى إرثه النبوي ليكون حجراً أساساً لنهضة لم تعد ترفاً، فإما هي أو الانقراض..



كل ما في "إقامة الصلاة" كان يعدّك، يمهدك، بالتدريج لتنضم إلى آل محمد..

كل ما في "إقامة الصلاة" من معان وقيم ومثل، ما كان ليتحقق عملياً، لولا أنها جميعاً تجسدت في رجل واحد، هو ذاك الذي نحاول أن ننضم إلى آله، عليه الصلاة والسلام..

كل "معاني إقامة الصلاة" لن تتحقق، إلا عبر اتباعنا له عليه الصلاة والسلام.. لأنها كلها لن تتحقق إلا إذا حاولنا تفعيلها، وتفعليها لن يكون ممكناً إلا عبر التواصل. معنى اتباعه - عليه والسلام - معادلة متصلة ومتواصلة لن تتكامل إلا بتحقيق طرفيها..

الصلاة في نتائجها

كل المعالم التي وجدناها في الصلاة، في أركانها وهيئاتها، في استفتاحها وتكبيرها وفاتحتها وتسبيحها؛ كل المعاني والقيم في ذلك جسدها - عليه الصلاة والسلام - عبر كل حياته.. لا يمكن فهم سيرته الشريفة حقاً دون فهم تلك المعالم في الصلاة، ولا يمكن فهم النقلة

الاجتماعية والنهضة التي شكلها الإسلام دون فهم انعكاس هذه المعاني على المجتمع قيد التكوين..

لقد أعادت الصلاة تشكيل "صورة الذات" في الذهن الوليد فقامت برفع التوقعات عن الذات، وساعد ذلك في تشكيل ذات أخرى: ذات إيجابية، ذات تتوقع من ذاتها كثيراً.. ذات "تقتحم" المغلق، وإن كان العالم كله، كان ذلك منذ البدء، منذ دعاء الاستفتاح، الذي فيه ضمناً طلب للفتح، وقد يكون فتحاً للعالم بأسره.. وفيه أيضاً ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦/١٦٣] تكريساً لإمكانية أي فرد أن يكون "الأول" في أي مجال.. وكان هناك "الله أكبر" الذي يعني أن كل ما سواه عائق وعقبة أمام الفرد المسلم أو المجتمع المسلم..

وكان هناك "الحمد" سلاح الإيجابية وجناحها المستديم الذي يضع "عدسة" لاصقة على عيون المصلي؛ فإذا بكل المصاعب يمكن أن تزول عبر العمل، وكل ما ينبغي استبداله في العالم، قابل للاستبدال عبر الكفاح من أجل ذلك..

وإذا بالهوية التعريفية لله عز وجل - ثلاثية الأركان - تؤصل في داخلك تواصلاً مع ربّ العالمين، متجاوزاً قومياتهم أو أعراقهم وألوانهم أو ثراءهم أو فقرهم؛ إنه ربهم جميعاً بنقطة انطلاق يتساوى فيها الجميع.. ورحمته التي كتبها على نفسه (ولم يكتب على نفسه شيئاً سواها) مبنية أصلاً على التوازن والنظام الذي بنى العالم عليه -

(وهو التوازن الذي يحاول الإنسان تغييره عبر الظلم والإفساد).. ورحمته فوق ذلك تمتلك هامشاً إضافياً، يتجاوز هذا التوازن..

وسيكون هناك ذلك القيام الشامخ الذي يحمل كل معاني الاستخلاف وفعل ما يجب فعله، وذلك التواصل بين الإبداع المنضوي تحت قواعد القيم الأخلاقية (الممثلة في وضع اليمين على الشمال أثناء القيام).. وذلك السجود الذي يمثل الخضوع الكامل الذي مهّد له الركوع الذي يمثل خضوع العقل أولاً وتواصل ذلك مع الأرض موضع الاستخلاف الذي يجب أن نعيد تكوينه ليحدث "فرقاً"..

كل تلك المعالم، وسواها، مما مرّ علينا في الأجزاء السابقة، ومما سيمر على آخرين يغوصون وينقبون بحثاً عن المزيد من المعاني؛ كل هذه شكلت "البنية الفوقية" لما حدث لاحقاً على صعيد الفرد والمجتمع والمسلمين..

لا يمكن فهم كل تلك المعالم حقاً إلا عبر تتبع أثرها، عبر تجسدها العملي في ذلك الفرد الذي أصبح أمة..

وأمة الأميين تلك، التي أعادت كتابة التاريخ: "واقتحمت" العالم بروح رسختها فيها الصلاة.. لتعيد تشكيله..



الانتماء إلى آل محمد، يتطلب كل ذلك، أن تستمر المسيرة المحمدية عبر آل محمد، أتباعه من الذين يشكل محمد عليه الصلاة والسلام - وكل ما يجسد من قيم -

سراجاً ينير لهم الدرب الذي يشقونه.. يعبدونه، نحو عالم جديد يبنونه بالسراج نفسه..

ولن يكون سهلاً بالتأكيد، لم يكن سهلاً في يوم من الأيام، كما أنه ليس سهلاً اليوم، فكل ما حولك يقدم لك نماذجَ أخرى وقوالب مغايرة تومئ لك بأن تقلدها وتقتدي بها..

لكن مجرد الوعي بذلك - مجرد التشخيص، قد يخفف (نظرياً على الأقل) من وطأة الأمر..

التحدي والحافز

والتحدي الأساسي في الانضمام إلى آل محمد عليه الصلاة والسلام، هو أنه وصل ذروة ما يمكن أن يصله إنسان.. إنه الإنسان العدل، الإنسان الأكمل، إنه النموذج الأعلى للإنسانية برمتها..

وهذا يمكن أن يكون صعوبة عندما يتعلق بالاتباع.. فالوصول إلى مثل كهذا أمر في غاية الصعوبة..

ولكنه من ناحية أخرى، يمكن أن يكون حافزاً لك: رفع مستوى مثالك إلى السقف الأعلى الممكن، سيجعلك تحشد كل طاقتك، لتحاول أقصى ما في وسعك..

لن تصل طبعاً وحتماً لذروته..

ولكن ما رأيك بخطوتين أو ثلاث بعده؟..

هل هذا كثير أيضاً؟.. هل من "التجديف" أن تفكر به مجرد التفكير؟.. ما رأيك لو أنه هو - عليه الصلاة

والسلام - رفع من معنوياتك.. ووضعك في موضع افتراضي، يمكن لك أن تأخذه؛ موضع لا تجرؤ حتى على التفكير في نيله؟..



.. لم يأتوا بعد ؟

أي شيء، في "الآل".. تعتقد أنه الأقرب؟..

مهما تكن توقعاتك..

لقد اختار عليه الصلاة والسلام لنا، أو للذين لم يأتوا بعد، والذين لم يولدوا بعد أيضاً، موقعاً قريباً جداً منه..

موقعاً لا نتوقع عادة أننا نستحقه..

ربما نحن لا نستحقه، لكنه عليه الصلاة والسلام يفسح لنا المجال والموقع.. لكي نعدّ أنفسنا له..

أي موقع؟..

موضع قريب جداً.. بمقاييس الآل..

موقع "الأخوة".. أخوته عليه الصلاة والسلام..

نحن؟.. نحن نأخذ هذا الموقع؟.. كيف؟..



قال عليه الصلاة والسلام، عندما أتى المقبرة : "السلام عليكم دار قوم مؤمنين. وددت لو أني رأيت إخواني،" قالوا (الصحابة): أولسنا إخوانك يا رسول الله؟..

قال: "أنتم أصحابي.. وإخواننا الذين لم يأتوا بعد"..

(رواه مسلم، باب استحباب إطالة الغرة ٦٠٧، ومسند أحمد ٩، مسند أبي هريرة، سنن النسائي ١٥١، ١١٠ باب حلية الوضوء)..



إخوانه هم أولئك الذين لم يأتوا بعد.. ولأن المسيرة مستمرة فإنهم يكونون أحياناً.. "لم يولدوا بعد".. ثم إنهم يولدون، ويكبرون، ويتلمسون ذلك الطريق عبر ذلك السراج، ويسيرون فيه حثيثاً، خطوة بعد خطوة مسرعين أحياناً، متلكئين أحياناً، ومتعثرين في أحيان أخرى..

لكنهم، بعد كل ذلك، ومع كل ذلك، يصلون، إنهم "يأتون".. ويكون مجيئهم مثل ولادة جديدة لهم..

وينضمون بذلك إلى آل محمد.. برتبة "إخوانه" عليه الصلاة والسلام..

أو كما قال..



وآخرون من بعدهم.. يمرون بالأطوار نفسها، يولدون، ويأتون، ويولدون حقاً من جديد، وينضمون إلى الآل.. بتلك المرتبة العالية.. رغم تطاول القرون، وتباعد المسافات، ورغم كل تصوراتنا المتدنية عن إمكاناتنا..

ولقد ودَّ لو أنه رآهم.. أولئك الذين لم يأتوا بعد..

(هل أستطيع أن أقول لو أنه رآنا.. بدلاً من (رآهم) على أمل أن نكون منهم؟)..

.. الوصول إلى تلك المرتبة العليا في الآل، مرتبة إخوانه عليه الصلاة والسلام، هي بالتأكيد أعلى ذروة يمكن أن يصلها إنسان؛ إنها المرتبة التي تكون أقرب ما يمكن إليه..

قاب قوسين أو أدنى منه.. عليه الصلاة والسلام..

وتلك المكانة، هي ذروتنا، هي منتهى ما يمكن أن نصل إليه.. إنها أعلى شوط يمكن أن نمضي إليه..

إنها "سدرة المنتهى" التي تخصنا..

قاب قوسين أو أدنى منه عليه الصلاة والسلام.. على دربه ومسيرته نحو ذلك العالم الآخر..



وهل سنكون متأكدين من أننا وصلنا هناك؟..

أبداً.. عندما تكون واثقاً من ذلك فكن واثقاً أنك قد خرجت من الآل، وأن عضويتك قد سحبت منك..

قوانين الانتماء إلى هناك تحتم ذلك، أن تظل دوماً تحاول الدخول والمكوث، أن تظل تحاول اقتناص الحدود الزئبقية لتلك السدرة.. سدرة المنتهى التي تخصنا، التي يغشاها ما يغشى..

إبداعك، وفعلك، وفاعليتك، يتطلب ذلك..

اتباعك الحقيقي الذي سيدخلك في آل محمد، سيتطلب منك ألا تكون واثقاً تماماً من أنك قد دخلت..

في الوقت نفسه، ورغم اتباعك الحقيقي يحتم عليك أن تكون واثقاً تماماً أن ذلك يدخل ضمن إمكانياتك..

ولن يكون ذلك يسيراً طبعاً، ولعلك لن تتوقع ذلك.. فلا مخاضَ دون أوجاع وآلام.. والانضمام إلى آل محمد مخاض آخر، مخاض يلدك من جديد شخصاً آخر.. إنساناً فاعلاً.. متجاوزاً حدود فرديته إلى حدود العالم الذي يشارك في بنائه ووضعه على أسس أكثر عدالة وتوازناً..

ولأن الأمر صعب جداً.. أمر الانضمام هذا.. فإن كل المسلمين، يدعون الله أن يصلّيَ على آل محمد.. أن يقويهم، أن يزيدهم قوة وثباتاً، أن يمدهم بالقوة، وبالرحمة، أن يمدهم بالمزيد من الأفراد المنضمين..

هذا هو، تقريباً، معنى صلّ وبارك على آل محمد التي نقولها عند سدرة منتهى الصلاة..



وذات يوم سيكف ذلك عن كونه مجرد دعاء نقوله.. سيكف عن كونه مجرد كلام..

وستخرج الكلمات من أسر الأحرف، من أسر الصفحات البيض، ستخرج لتكون فاعلة في العالم..

وسيكون هناك ذلك الانضمام المضيء إلى آل محمد..

ذات يوم، سيحدث ذلك حقاً.. لا أعرف متى، لكني أعرف دلالة لحدوث ذلك، علامة مميزة له.. إنه أن تنظر للعالم، فإذا به عالم آخر.. عالم آخر غير هذا العالم المروع المليء بالظلم والجوع والقتل و الهجرة و التهجير

و الجثث المرمية في العراء والأيتام الذين ينتظرون عودة من لن يعود..

عندما ينهض ذلك العالم الآخر الجديد، عندما يكف عن كونه "ممكناً" ليصير "واقعاً"..

يكون ذلك قد حدث..



خاتمة، أوبداية: فجر جديد

عما قليل يطلع الفجر..

لكن هذا الفجر الذي سيطلع بعد قليل، هو الفجر الذي يتحدد بوجودي في خط طول أو عرض معين..

لكن، لو خرجنا عن حدودنا الشخصية، وخطوط الطول والعرض التي تخصنا، لأدركنا أن في كل لحظة، في كل ثانية، في هذا العالم، ثمة فجر جديد يشرق على هذا العالم..

كل لحظة يوجد "حيّ على الصلاة".. نداء من أجل حياة أخرى.. حياة مبنية على أسس أخرى: أسس بينتها لنا الصلاة..

إنها حياة "أوكسجينها" الصلاة.. حياة حقيقية، ستبدو كل حياة أخرى سواها مجرد موات مقنع..

مع كل فجر، في كل لحظة، سيكون هناك "الصلاة خير من النوم"؛ ولن يكون ذلك النوم السريري فقط.. بل ذلك النوم التاريخي الذي هو مرادف للموت السريري.. بفارق أن أصحابه يسيرون في نومهم، ويأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ويتزوجون وينجبون أطفالاً يعلمونهم كيف يستمرون في النوم خلال ذلك كله..



وستود لو أن كلمات الأذان تتجاوز آذان الناس إلى رؤوسهم؛ تصعقهم، توقظهم، بطريقة ما.. ولو بصفعهم...

ستود أنك تعرف "كلمة سر" تقولها فتغيرهم إلى الأبد،

ستود أن هناك كلمة أو مجموعة كلمات تقولها فتقدح في أنفسهم شرارة التحول، شرارة التغيير..

تتمنى ذلك، وأنت تعرف أن الأمر أعقد من ذلك وأنه محكوم بسنن وقوانين تحاول أن تكون جزءاً منها، ثم يأتي من يحاول أن يحبطك ويقول لك: إن محاولات التغيير تلك لن تكون أحسن حظاً من محاولات الكيميائيين الأوائل، يوم كانت كل محاولاتهم و تجاربهم تنصب على المستحيل بعينه: تغيير المعادن الرخيصة إلى الذهب..



.. وطويلاً بحث أولئك الكيميائيون عن "حجر الفلاسفة" ذاك، الذي لم يكن سوى أسطورة تخيلوا أنهم عبره سيتمكنون من فك شيفرة العناصر، وتحويل العناصر (التي كانوا يسمونها الخسيسة) إلى معادن ثمينة..

لكن لا..!

أنت لا تبحث عن "حجر الفلاسفة"..

لأنك واثق تماماً من نبل معادن هؤلاء الناس الذين يجب أن يتغيروا ..معادنهم ليست خسيسة كي تحاول تغييرها.. حتى لو بدت أنها كذلك للوهلة الأولى، كل ما في الأمر أنهم لا يعرفون نبلها لأن الصدأ تراكم عليها و غطى على كل صفاتها وفعاليتها..

كل ما تريده هو أن تجلو الصدأ الذي ران على حقائقهم..

لا تريد "حجر الفلاسفة" وأوهامه وطلاسمه وألغازه التي تفترض أن تحول معدناً إلى آخر..

بل تريد إرث محمد عليه الصلاة والسلام، تريد "حجر النهضة" الذي يعيد الإنسان إلى حقيقته ويجلو ما تراكم عليه.. ويجليه إلى موقعه الأصلي ومكانته الأولى..



وإذا كانت محاولات البحث عن "حجر الفلاسفة" قد فشلت، لكنها ساهمت في تعبيد الطريق إلى علم الكيمياء الحديث، فإن الطريق إلى "حجر النهضة" لا بد أن يمر" بكيمياء الصلاة"..

وحدها كيمياء الصلاة ستتمكن من الوصول إلى ذلك التغيير، وحدها ستتمكن من إعادة المعدن الإنساني إلى جوهره..

سيبدأ الأمر بكهارب تسري في عروق ناس عاديين.. ثم تجتمع الكهارب لتصير شرارة..

ثم إن الشرارة ستقدح الزناد..

وعندها سيحدث ما "سيحمد عقباه"...

ريثما يحدث ذلك، ومن أجل أن يحدث ذلك: حيّ على الصلاة...

(انتهى.. مع كل الأسف، انتهى

ولكن لعله ابتدأ الآن فقط)

دمشق فجر يوم ٣١/ ٣/ ٢٠٠٨م-

الموافق ٢٤ ربيع الأول ١٤٢٩هـ



مستخلص

سلسلة كيمياء الصلاة بحلقاتها الخمس تركز على الصلاة بصفتها عملية نعيد تشكيل أنفسنا من خلالها. وهي العملية اللازمة والضرورة التي تساعد الإنسان على أداء ما خُلق من أجله: إعمار الأرض.

الصلاة في هذه الحلقات هي تجسيد شعائري وعملي لكل معاني النهضة والنهوض التي هي جوهر الإسلام. ومن خلال تمثل هذه المعاني - عبر الصلاة - فإن فكر النهضة سيهبط من رفوف الكتب وأفكار المثقفين ليلتحم بأرض الواقع. إنها الحلقة المفقودة بين ما نحن عليه فعلاً، وما يجب أن نكونه.

الحلقة الخامسة من السلسلة تتألف من مقدمة وخمسة فصول وخاتمة، وتسلط الضوء على المعاني المحتواة في جلسة التحيات الأخيرة في الصلاة، التي تنتظم هنا لتمسك بكل المعاني في منظومة النهضة التي مثلتها الصلاة. ففي جلسة التحيات تنتظم علاقتنا بالرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، ومن خلال علاقتنا به، سنحدد دورنا في عملية النهضة، التي بدأها هو، صلى الله عليه وسلم.

Abstract

This series, *"Chemistry of Prayers"*, with its five episodes, highlights the prayer which is practical for reformulating our own selves. It is the essential practice and the necessity which helps the human do the things for which he/she was created; i.e., building the Earth.

In these episodes prayer is a ritual and workable incorporation of the meaning of revival and resurgence which constitute the essence of Islam. If we assimilate these meanings – through prayer – the thought of the revival will surely get off the racks of the books and the ideas of the intellectuals and unite with reality which represents the lost circle between the life we really live and what we have to be.

Episode Five of this series consists of an introduction, five chapters and a conclusion. It highlights the meanings included in the sitting for saying the final *tahiyyat* in prayer. These meanings appear in order and in a way that they involve all the senses found in the syndrome of revival that prayer represents. This is because while sitting for saying *tahiyyat*, our relation with the Messenger (pbuh) gets regulated, and through our relation with him we will determine our role in the process of revival which he (pbuh) started.

كيمياء الصلاة ٥
سدرة المنتهى

The Lote Tree of the Utmost Boundary
Sidrat al-Muntaha
Aḥmad Khayrī al-'Umarī

(كيمياء الصلاة) سلسلة تتحدث عن الصلاة التي يجب أن تكون، عن الصلاة التي تقويك، وتسندك، وتكون معولك ودرعك وبوصلتك ورادارك.. عن الصلاة بوصفها (المعادلة) التي تعيد النظام لعالمك.. إنها تتحدث عن الصلاة بوصفها منظومة متكاملة، للفرد وللمجتمع، من أجل بناء فرد ومجتمع أفضل. بعبارة أخرى: إنها الصلاة من أجل النهوض..

في الحلقة الخامسة والأخيرة نصل إلى أقصى ما يمكن الوصول إليه في هذا العالم. وإذا كانت كل هيئات الصلاة تمحورت حول العلاقة مع الله عز وجل؛ فإن جلستنا الأخيرة ستكون حول علاقتنا بالإنسان الأهم في حياة كل منا؛ الإنسان الذي تمكن فعلاً من تجسيد معاني النهوض والبناء كلها، ذاك الذي لولاه لكانت هذه المعاني مجرد أفكار هائمة، بينما تمكن **هو** من بنائها على أرض الواقع، **صلى الله عليه وسلم**، علاقتنا به، خطوطها وخنادقها، ستكون (حجراً للنهضة).. حجرٌ هو في حقيقته ***منصة الانطلاق***.



ISBN -9953-511-70-5

تصميم الغلاف: يمان بطيخة